مجلة جامعة جازان للعلوم الإنسانية
Jazan University Journal of Human Sciences (JUJHS)

مفاهيم البلاغة وأثرها في شروح الحديث النبوي: دراسة في التصور والإجراء

إبراهيم سعيد السيد
كلية الفنون والعلوم الإنسانية، جامعة جازان، المملكة العربية السعودية

Concepts of Rhetoric in the Analysis of Hadith Discourse: A study in perception and procedure

Ibrahim Said Al-Sayed
College of Arts and Humanities, Jazan University, Kingdom of Saudi Arabia

DOI	RECEIVED الاستلام	Edit التعديل	ACCEPTED القبول
https://doi.org/10.37575/h/edu/22002	2023/10/15	2023/12/04	2024/01/22
NO. OF PAGES عدد الصفحات	YEAR سنة العدد	VOLUME رقم المجلد	ISSUE رقم العدد
27	2024	3	12

الملخص:

ينطلق هذا البحث من فرضية تقول: إن النظرية البلاغية العربية لها من الإمكانات والقدرات البحثية ما يؤهلها لأن تجدد نفسها كل حين، وذلك بفضل تداخلها مع حقول معرفية كثيرة، لكنَّ وقوف البحث البلاغي –في مساره التعليمي– عند ما قدمه البلاغيون المتأخرون من إسهام علمي قائم على التقسيم، ووضع المصطلحات، وضرب الأمثلة، وشرح المتون، ووضع الحواشي على المتون، –دون النظر في المسارات البحثية الأخرى واستثمار معطياتها– هو ما أضر بالمسيرة العلمية للبلاغة العربية.

ولذلك يسعى هذا البحث إلى دراسة المفاهيم التي قدمها علماء الحديث الشريف للبلاغة، –بوصفهم معنيِّين في المقام الأول بتحليل الخطاب النبوي– وإلى رصدِ هذه المفاهيم في ثلاث مراحل: الأولى: ما قبل ظهور المؤلفات البلاغية، والثانية: ما بعد التدوين وقبل ظهور مرحلة السكاكي، والثالثة: مرحلة ما بعد السكاكي؛ حيث تقسيم البلاغة إلى ثلاثةِ علومٍ تسبقُها مقدمةٌ عن الفصاحة والبلاغة.

كما تبحث هذه الدراسة في جانب آخر مهم وهو ربط مفاهيم البلاغة عند شراح الحديث بالآليات التي وُظِّفت في تحليل الخطاب النبوي، حيث الاهتمام –أولاً– بالعناصر اللغوية في شقها البنيوي: الصوتي والصرفي والمعجمي والتركيبي والدلالي، ثم ربطها –ثانيًا– بالعلامات غير اللغوية التي ينتجها مقام التخاطب، ولا يتضح مدلولها إلا عبر دراسة سياق التداول.

الكلمات المفتاحية: الحديث النبوي، الخطاب، مفاهيم البلاغة.

Abstract:

This research is based on the assumption that Arabic rhetorical theory has the potentials and capabilities that enable it to renew itself every now and then, due to its intersection with other fields of knowledge. However, one can realize that the scientific contributions made by the late rhetoricians are limited to division, establishment of terminology, giving examples, explaining texts, and placing footnotes on texts without considering other research paths and exploiting their data. This is what affected negatively the path of Arabic rhetoric research.

This research therefore investigates the concepts of rhetoric among the Hadith scholars in three stages, namely, before the appearance of rhetorical works, after the codification and pre and post-Sakkaki stage, where rhetoric was divided into three branches, preceded by an introduction to rhetoric. This study also investigated another important aspect, that is, connection of rhetoric concepts among hadith scholars to the mechanisms they employed in analyzing Hadith, where emphasis is shifted to linguistic elements in their structural aspects i.e. the phonological, morphological, lexical, syntactical and semantic ones, and then connecting these with non-linguistic factors produced by the position of communication context.

Keywords: Speech, Rhetoric Concepts, Hadith Analysis.

مقدمة:

تعد مفاهيم البلاغة التي قدمها علماء العربية، وعلماء تحليل الخطاب القرآني، والحديث النبوي، والنص الأدبي، أرضًا خصبة لإثارة أسئلة مهمة حول طبيعة الدرس البلاغي على المستوى التطبيقي في تلك المرحلة، وعن الأسباب التي من أجلها قصر الباحثون إدراكهم مفهوم البلاغة على كتب أهل الصناعة، دون أن يكون لإسهامات العلوم الأخرى – التي وَظَّفت البلاغةَ في تحليل الخطاب– دورٌ في إرساء المفاهيم، وبناء التصورات والمسارات.

من شأن هذه التساؤلات المعرفية أن تؤطر للبلاغة العربية اتجاهات بحثية جديدة في تاريخها ومساراتها، بحيث يمكن –عند تقديم البلاغة العربية– إضافة رؤىً أُخرى إلى رؤية السكاكي (ت٦٢٦هـ)، ومَنْ جاء بعده من البلاغيين المتأخرين، وأزعم أن الوقوف عند هذه التجربة –وحدها– وعدم تجاوزها قد أضر بسمعة البلاغة العربية التي لها من الإمكانات والمسارات والتصورات ما يؤهلها لأَنْ تُجدِّدَ نفسَها كلَّ حين.

وهذا لا يعني التقليل من أهمية مسار النظرية البلاغية عند المتأخرين، ولكن يعني أن الاكتفاء بهذه المحاولة، وقصر البلاغة العربية على توجه السكاكي فحسب، جعل الباحثين يعاملون هذا الاتجاه على أنه الممثل الوحيد للبلاغة العربية، في الوقت الذي أُؤمن فيه بأنه مسار واحد من مسارات عدة، وقد آنَ لها أن تعود إلى نشاطها البحثي.

ذلك أن حقل البلاغة قد التحم بمنجزات الحقول المعرفية الأخرى، واستثمر الباحثون معطياته في دراسة علوم القرآن، وكذلك فعل شراح الحديث النبوي في توظيفهم تلك المفاهيم في تحليل مضامين الخطاب، واتخاذ المباحث البلاغية أداةً لتحليل المقاصد والأغراض السياقية، فظهرت للبلاغة العربية –على مر العصور– إمكانات عديدة يمكن من خلالها أن تجدد نفسها كل حين.

وقد اخترت البحث عن (مفاهيم البلاغة وأثرها في شروح الحديث النبوي)؛ لاستجلاء التصورات المفهومية للبلاغة أولاً، ولبيان أثرها في طبيعة التحليل البلاغي ثانيًا.

أسئلة الدراسة:

لأهمية ذلك الموضوع وبخاصة ما يتعلق برصد مفاهيم البلاغة في شروح الحديث النبوي، فقد طرحت سؤالين من الأسئلة المنهجية المتعلقة بتحليل ذلك النوع من الخطابات، وهما على النحو الآتي:

١–ما أبرز المفاهيم الكلية للبلاغة عند شراح الحديث النبوي في تحليلهم العلمي للخطابات النبوية وأثرها في تعدد مسارات التحليل؟

٢-كيف تسهم هذه التصورات في بناء مسارات تحليلية جديدة، أو على الأقل في بناء تصورات تنفي عن البلاغة تهمة الجمود المعرفي؟[١].

منهج البحث:

يعتمد هذا البحث على الاستقراء والتحليل في رصده مفاهيم البلاغة عند شراح الحديث النبوي، كما يعتمد على تحليل المسارات التي اتبعها العلماء في تحليلهم الخطاب النبوي، في ضوء تصورهم دور البلاغة في الاستدلال، وكذلك ما يتعلق بالإجراءات التي غلبت على طريقة الشراح.

خطة الدراسة:

من أجل الإجابة عن أسئلة البحث فقد جاءت الدراسة في: مقدمة، ومبحثين، وخاتمة، وذلك على النحو الآتي:

المقدمة: وفيها بيان معالم الدراسة من حيث منطلق الفرضية العلمية، وأسئلة البحث، وخطته.

ثم المبحث الأول: مفاهيم البلاغة عند شراح الحديث النبوي، وأناقش فيه ما يتعلق بمفاهيم البلاغة في المراحل الآتية:

١-مفاهيم البلاغة في كتب شروح الحديث قبل ظهور المؤلفات البلاغية.

٢-مرحلة ما بعد تدوين علوم البلاغة وقبل ظهور السكاكي (ت٦٢٦هـ).

٣-مرحلة ما بعد ظهور السكاكي والقزويني.

ثم المبحث الثاني: توجهات التحليل البلاغي للحديث النبوي، وأناقش فيه القضايا الآتية:

أولاً: تحليل العناصر اللغوية.

ثانيًا: تحليل العلامات غير اللغوية وربطها بلاغيًا بمعطيات الخطاب.

ثم الخاتمة وأهم النتائج.

المبحث الأول: مفاهيم البلاغة عند شراح الحديث النبوي

يعد البحث في ضبط المفاهيم البلاغية -وبخاصة عند غير البلاغيين- من أهم مباحث (علم أصول البلاغة)؛ ذلك "أن الفكر البلاغي كان موجودًا بصبغات متنوعة لدى الأصوليين، والمفسرين، وعلماء الكلام، والفقهاء، وعلماء اللغة، والأدباء، والنقاد، وبذلك يمكن القول: إننا أمام مفاهيم بلاغية متداخلة في التراث العربي، تحتاج منا إلى دراسة عميقة في استنباط الأصول الإبستمولوجية المنطلقة من تصور بلاغي لدى هذه الفروع العلمية، بما لديها من تقاطعات واختلافات، وذلك بغرض الكشف عن التوجه النسقي للبلاغة عند كل فريق من خلال الأطر

---

(١) تعرضت البلاغة العربية لحزمة من الانتقادات التي تعددت أغراضها وسياقاتها ومنطلقاتها وخلفياتها المعرفية، وذلك على مدار أكثر من قرن من الزمان، لعل من أبرز هذه الانتقادات: المعيارية، والعناية بالجزئيات، والعجز عن التعامل مع الفنون الأدبية الحديثة، والشكلانية، وإهمال الحالة النفسية للمتكلم، والعجز عن صياغة نظرية متكاملة...إلخ. ينظر: البلاغة العربية الجديدة مسارات ومقاربات، عماد عبد اللطيف، ٢٦٨، ٢٦٩. وينظر: إشكالية تجديد البلاغة العربية رؤية في المنهج وطرائق التعليم، بن عيسى، بطاهر، أعمال مؤتمر اللغة العربية ومواكبة العصر ٢٠١١م، الصفحات: ٤٣-٧٧. وأرى أن كثيرًا من هذه الانتقادات نابعٌ من أخذ أصحابها المفاهيم البلاغية من كتب البلاغة التقعيدية على مر العصور، مع إغفال الممارسات البلاغية الرائعة في كتب تحليل الخطاب القرآني، وشروح الحديث النبوي، وتحليل الخطابات الأدبية، وإغفال كثير من التصورات البلاغية في ممارسات الفقهاء، والأصوليين، وعلماء الكلام والفلسفة.

النظرية التي أرسوها، أو من خلال الإجراءات والقراءات التي قاموا بها"[٢].

وقد تعددت اتجاهات البحث البلاغي عند شراح الحديث النبوي، فمن العلماء من عُني في بعض مصنفاته بالغريب، **كالزمخشري** (ت٥٣٨هـ) في:(الفائق في غريب الحديث والأثر)، ومجد الدين **ابن الأثير** أبو السعادات (ت٦٠٦هـ) في كتابه:(النهاية في غريب الحديث والأثر) وغيرهما، وهذه المصنفات بطبيعة الحال وإن مارست جوانب معينة من البحث البلاغي، من حيث التوجه إلى الدلالة عبر السياقات والمقام، والبحث عن مراد الدلالة الوضعية أو دلالة التضمن أو دلالة الالتزام، وغيرها من طرائق التحليل البلاغي، فإنها لم تُعن بما يتعلق بتعريف البلاغة ومناقشة المفاهيم المقدمة حولها بحيث تكون حاضرة في وعي القراءة.

ومن العلماء من كان يكتفي بالإشارة إلى الملامح البلاغية في الحديث انطلاقًا من كون البلاغة تقتضيها، وبذلك فإن تصوره للبلاغة التطبيقية جعله يذكر هذه المسائل ويبين قيمتها الجمالية. ومنهم من كان يوسع من دائرة التوظيف البلاغي للمفاهيم، فينطلق من أن البلاغة لا تقف عند حد الجمال الشكلي أو المعياري، وإنما من كونها آلية من آليات الاستدلال على المعنى، كما كان عند الطيبي في (الكاشف عن حقائق السنن)، وكما عند ابن الأثير أبي السعادات نفسِه في كاتب آخر له هو:(الشافي في شرح مسند الشافعي)، بما يدلنا على أن فكر الرجل لا يتضح من مصنف واحد مما كتب، وأن طبيعة المراجعة البلاغية لا تحصل إلا بالنظر في مجموع المدونات المقدمة من العالِم.

أما مفاهيم البلاغة –محل الدراسة– فقد اختلفت طرائق إيرادها في شروح الحديث، فمنها ما أغفلَ ذكرَ البلاغة صراحةً، ومنها ما حفَلَ بمفاهيمَ عامةٍ واسعة لها؛ بحيث يربطها بسياقات الشرح والخطابات المحللة، ومنها ما عمَدَ إلى كتب أهل الصناعة ونقل عنها، واهتم بمسار معين من هذه المفاهيم واشتغل عليه في تحليله الخطاب النبوي، ومنها ما ركز على الجانب التطبيقي بطريقة إجرائية تدل على إيمانه بتصور معين لوظيفة البلاغة العربية.

لكنْ من الجدير بالذكر أن البحث عن مفاهيم البلاغة في شروح الحديث، أو غيرها من كتب تحليل الخطاب، يعد من الأمور التي توجب علينا أن نتصور الأسس المشتركة بين الفكر البلاغي ومناهج تحليل الخطاب عند علماء العربية، وغيرهم من علماء تحليل الخطاب القدامى.

وقد ذكرت بعض المصادر العلمية الحديثة أن هناك ثنائية مهمة قد حكمت التصور المفهومي للبلاغة العربية والغربية، وهي ثنائية (الشعري/ الخطابي)، أو (التخييلي/ التداولي) [٣]. لكنني أزعم أن كثيرًا من الفوارق المتصورة بين هذه الثنائية قابل للتلاشي في عمل مهم من أعمال التحليل البلاغي للخطاب، كما عند شراح الحديث النبوي، بالإضافة إلى إمكان إيجاد طرائق أخرى يمكن استثمار

(٢) ينظر: أصول البلاغة العربية، نحو محاولة تأسيسية لتصور جديد، إبراهيم سعيد السيد، ط/ دار النابغة مصر – الطبعة الأولى ١٤٤٣هـ ٢٠٢٢م، صـ٤٠.

(٣) ينظر: أسئلة البلاغة في النظرية والتاريخ والقراءة دراسات وحوارات، محمد العمري، ط/ أفريقيا الشرق، ٢٠١٣م، الصفحات: ٥– ٨.

معالجاتها في إقامة تصورات مفهومية جديدة لتحليل الخطاب تحليلا بلاغيًّا.

ويمكن تتبع أبرز المفاهيم البلاغية في مصادر شرح الحديث النبوي تتبعًا زمنيًّا، عبر تقسيم الشروح إلى ثلاث مراحل، بحسب سير النظرية البلاغية وتطورها، وذلك على النحو الآتي:

١-البلاغة في كتب شروح السنة قبل ظهور المؤلفات البلاغية

تكاد تخلو كتب شروح الحديث النبوي من المفاهيم البلاغية -اصطلاحيًّا ولغويًّا- في المرحلة التي سبقت بداية تدوين علوم البلاغة، ومن أبرز الأمثلة على ذلك كتاب:(اختلاف الحديث)[٤] في آخر كتاب (الأم) للإمام الشافعي (ت٢٠٤)؛ حيث يهتم بما يتعلق بالحديث أحكامًا واستدلالاتٍ فقهيةً، من غير إشارةٍ صريحةٍ إلى المصطلحاتِ البلاغية، وإن كان لها حضور في وعي الاستنباط.

لكنَّ هذا لا يعني أن الشافعيَّ لم يقدم تصورًا مفهوميًّا للبلاغة، فقد أسهم -رحمه الله- في ذلك بسهم مهم، وذلك قبل أن تظهر المدونات البلاغية، فقد حُكي عن "الربيع بن سليمان أنه قال: قال رجل للشافعي: يا أبا عبد الله ما البلاغة؟ قال: البلاغة أن تبلغ إلى دقيق المعاني بجليل القول، قال فما الإطناب؟ قال: البسط ليسير المعاني في فنون الخطاب، قال: فأيما أحسن عندك الإيجاز أم الإسهاب؟ قال: لكل من المعنيين منزلة، فمنزلة الإيجاز عند التفهم في منزلة الإسهاب عند الموعظة"[٥].

أما كتاب (الجامع لعلوم الإمام أحمد (ت٢٤١هـ): شرح الحديث والآثار)، فقد أغفل الحديث عن البلاغة أيضًا، فليس هناك تعريف صريح للبلاغة في هذا السفر المهم، وإن كان لها حضور في وعي القراءة، كما أشرت، ومن ذلك مثلاً: "قال عبد الله: سمعت أبي -(أي الإمام أحمد)- يقول في حديث أبي هريرة عن النبي -صلى الله عليه وسلم-:"**أُمِرْتُ بِقَرْيَةٍ تَأْكُلُ القُرَى**"، تفسيره والله أعلم- بفتح القُرَى، فُتحتْ مكةُ بالمدينة، وما حول المدينة بها، لا أنها تأكلها أكلًا؛ إنما تفتح القُرى بالمدينة"[٦]. فبالرغم من أن الحديث فيه جوانب بلاغية مهمة تستحق الوقوف والتأمل عندها، فإن شرحه قد اقتصر على بيان معناه، دون التطرق إلى ما فيه من مداخل بيانية تتعلق باستعمال الألفاظ استعمالاً مجازيًّا، وكذلك دون العناية بوضع بعض المفاهيم التي تيسر للقارئ فهم الظاهرة البيانية في النص.

وتجدر الإشارة إلى أن مصطلح (المجاز) لم يكن قد تبلور مفهومه وقتئذ، وإن كان أبو عبيدة معمر بن المثنى (ت٢٠٧هـ) قد استعمله في كتابه (مجاز القرآن)، لكنه لم يكن بالتصور الذي استقر عليه البحث في الدرس البلاغي عند المتأخرين. ولا يمنع

---

(٤) ينظر: اختلاف الحديث، مطبوع بآخر كتاب الأم، للشافعي، ط/دار الفكر – بيروت، الطبعة الثانية ١٤٠٣هـ- ١٩٨٣م، والكتاب مطبوع في ثمانية أجزاء، تقع في خمسة مجلدات، ويقع (اختلاف الحديث) ضمن الجزء الثامن منها.

(٥) الفقيه والمتفقه، للخطيب البغدادي، تحقيق عادل العزازي، ط: دار ابن الجوزي – السعودية، الطبعة الثانية ١٤٢١هـ، ٦٦/٢.

(٦) الجامع لعلوم الإمام أحمد – شرح الأحاديث والآثار، خالد الرباط، وسيد عزت عيد، دار الفلاح للبحث العلمي وتحقيق التراث، الفيوم – مصر، الطبعة الأولى، ١٤٣٠هـ، ٢٠٠٩م، ٣٧٣/١٥.

هذا من أن بعض العلماء كان يوظف التحليل البياني للنصوص في وقت قريب جدًّا من ذلك العصر، كابن قتيبة الدينوري (ت٢٧٦هـ)، على سبيل المثال؛ حيث نجده يلجأ إلى جعل مباحث البلاغة آليةً للتحليل، كتفسيره لتسمية (الظهار) بهذا الاسم بما شاع من التعبير عنه قبل الإسلام بقول بعضهم:(أنت عليَّ كظهر أُمِّي)، فيقول معلقًا على ذلك: "أَقَامَ الظَّهْرَ مقَام الرّكُوب لِأَنَّهُ مركوب، وَأَقَام الرّكُوب مقَام النِّكَاح لِأَن الناكح رَاكب، وَهَذَا من لطيف الِاسْتِعَارَة للكناية"(٧).

والخلاصة أن المدونات التي اهتمت بالحديث النبوي شرحًا وتحليلاً في هذه الفترة لم تُعن بذكر مفاهيم للبلاغة، ولا بوضع تصورات عامة لها، وإن كان لها حضور في وعي القراءة التحليلية بحيث يمكن تلمسها ضمنًا في مطاوي الكلام.

٢-البلاغة في شروح الحديث بعد التدوين وقبل مرحلة السكاكي

لم تكن كتب شروح الحديث في هذه الفترة على منهج واحد في تعاطي البلاغة: مفاهيم ومسائل، بل كان منها ما سار على منهج السابقين في إغفال الحديث عن مفاهيم البلاغة جملةً، ومنها ما اشتغل على تحديد مفاهيمها مع ظهور تجليات هذه المفاهيم في التحليل والاستدلال.

ومن ثم يمكن تقسيم شروح السنة في هذه المرحلة في مسارين:

المسار الأول: كتب لا تتطرق إلى بيان مفاهيم البلاغة في تصورها النظري أو العملي، ولا تأخذ حتى عن أهل الصناعة الحدودَ البلاغية، ومن الكتب الممثلة لهذا الاتجاه: كتاب (معالم السنن) **للخطابي** ت٣٨٨هـ. وله أيضًا كتاب:(أعلام الحديث في شرح صحيح البخاري)، وهو يحذو حذو (معالم السنن) في عدم التصريح بالمفاهيم البلاغية، والاقتصار على بيان الأحكام الشرعية.

غير أنه قد عرض بعض الجوانب التنظيرية المتعلقة بمصطلح (البيان) بإشارات مهمة، كتفصيله في أنواع البيان وهو يعلق على حديث: "**إِنَّ مِنَ البَيَانِ لَسِحْرًا**"، حيث قال: "البيان بيانان: بيان يقع به الإبانة عن المراد بأي لغة كان، وبأي لسان أبان، ولم يرد بالسحر هذا النوع منه. والضرب الآخر منه: بيان بلاغة وحذق وهو ما دخلته الصنعة بالتحبير له، والتحسين لألفاظه حتى يروق السامعين ويستميل به قلوبَهم، فهو الذي يشبَّهُ بالسحر إذا خَلَب القلوبَ وغلَبَ علَى النفوس، حتى ربما حولَّ الشيء عن ظاهر صورته، وصرفه عن قصد جهته، فيبرزه للناظرين في معرض غيره، وهذا قد يُمدح مرةً ويُذم أخرى"(٨).

ومن كتب ذلك الاتجاه أيضًا: كتاب (مشكل الحديث وبيانه) **لابن فورك** (ت ٤٠٦هـ)، فهو يعرض ما يطرأ على الحديث من سوء فهم، ثم يشرع بعد ذلك في إزالة المشكل، ويوجه الحديث إلى المعنى المراد في مناقشة استدلالية تأخذ بالأدلة وإعمال النظر فيها، دون أن يتطرق إلى البلاغة وطرح مسائلها بوصفها من أدوات الاستنباط.

(٧) غريب الحديث، لابن قتيبة، تحقيق عبد الله الجبوري، مطبعة العاني- بغداد، الطبعة الأولى ١٣٩٧هـ، ١/ ٢٠٩.

(٨) أعلام الحديث، شرح صحيح البخاري، للخطابي، تحقيق محمد بن سعد آل سعود، ط: مركز البحوث العلمية وإحياء التراث الإسلامي، جامعة أم القرى، الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ- ١٩٨٨م، ٣/ ١٩٧٦.

وكذلك كتاب:(القبس في شرح موطأ مالك بن أنس) **لأبي بكر بن العربي** (ت٥٤٣هـ)؛ حيث يتْبَعُ في جملته نهج المرحلة الأولى في الاقتصار على بيان الأحكام وما يتعلق بها من دلالات شرعية، من غير أن يكون للبلاغة كبير عناية عنده من حيث الحضور التنظيري للمصطلح في التحليل والشرح.

المسار الثاني: تمثله مجموعة من الشروح التي تطرقت إلى عرض بعض الحدود والمفاهيم حول معنى البلاغة بصياغة جديدة تستحق النظر والتأمل، وبعضها ينقل عن كتب البلاغة التي ظهرت في هذه المرحلة، ككتب الجاحظ، وابن المعتز، والرماني، وأبي هلال العسكري وغيرهم. ومنهم من كان يستحضر بعض مصطلحات العلم ويعرف بها.

فمن ذلك: كتاب (التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد)، **لابن عبد البر**(ت٤٦٣هـ)؛ حيث نجده يقدم تصورًا مفهوميًّا للبلاغة، ولصفاتها أحيانًا، وما يمدحه فيها أهلُ اللسان وما لا يمدحونه. ومن ذلك: ما ذكره في سياق تفسير ذم البلاغة إذا طالت عناصر الكلام بغير فائدة تُرجى، أو ارتبط مقصودها بالتوصل للباطل وقلب الحقائق، فقال: "إنَّما يَحْمَدُ العلماءُ البلاغةَ واللِّسانَةَ، ما لم تخرُجْ إلى حدِّ الإسْهَابِ والإطْنابِ والتَّفَيْهُق؛ فقد رُوِي في الثَّرْثارِينَ المتَفَيْهِقِينَ أنَّهم أبْغَضُ الناسِ إلى الله ورسولِه، وهذا، واللهُ أعلمُ، إذا كان ممَّن يُحاوِلُ تَزْيينَ الباطلِ وتَحْسِينَه بلَفْظِه، ويريدُ إقامتَه في صورة الحقِّ، فهذا هو المكروهُ الذي ورَد فيه التَّغْلِيظُ"(٩).

كما يُفهم –من بعض ما نقله ابن عبد البر عن أوصاف البلاغة– أنه يؤمن بأن البلاغة تقع في الكلام إذا كثُرَتْ مصادر (الثقافة الأدبية) فيه؛ ليكون الخطاب مزدانًا بالفوائد، والحِكَم، والملَحِ، واللَّطائِف، والحُجَج، لا أن يكون اللفظ حسنًا في ذاته، عاريًا عن المعرفة. فقال في ذلك:"من أحْسَنِ ما قيل في مَدْحِ البلاغةِ مِن النَّظْمِ، قولُ حَسَّانَ بنِ ثابتٍ في ابنِ عباسٍ:

صَمُوتٌ إذا ما الصَّمْتُ زَيَّنَ أهلَه
وفَتَّاقُ أبْكارِ الكَلامِ المُخَتَّمِ
وَعَى ما وَعَى القرآنُ من كلِّ حِكْمَةٍ
ونيطَت له الآدابُ باللَّحْمِ والدَّمِ

وقال ثَعْلَبٌ: لا أعْرِفُ في حُسْنِ صِفَةِ الكَلام أحْسَنَ من هذَيْنِ البَيْتَيْن، وهما لعَدِيّ بنِ الحارثِ التَّيْمِيّ:

كأن كلامَ الناسِ جُمِّعَ عندَه
فيأخُذُ من أطْرافِه يتَخَيَّرُ
فلم يَرْضَ إلَّا كلَّ بِكْرٍ ثَقِيلَةٍ
تكادُ بآنٍ من دَمِ الجوفِ تَقْطُرُ"(١٠)

ولعل هذا المفهوم الذي نقله ابن عبد البر يلتقي مع كلام بعض الباحثين المعاصرين في وصفهم طبيعة البلاغة النبوية؛ حيث ذكروا أن من خصائص بلاغته –صلى الله عليه وسلم–: البيان، وبخاصة أن كلامه –صلى الله عليه وسلم– مفصِّلٌ ومخَصِّصٌ أحيانًا للقرآن الكريم، وكذلك: تفرده بعلم كل لغات القرآن، وحكمته في مواجهة المخاطبين، واتصاف خطابه بجوامع الكلم، وإلمامه

(٩) التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، أبو عمر ابن عبد البر القرطبي، ط/ مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، الطبعة الأولى ١٤٣٩هـ، ٢٠١٧م، ٣/ ٥٨٦. وينظر: التوضيح لشرح الجامع الصحيح، سراج الدين أبو حفص ابن الملقن الشافعي، دار النوادر دمشق سوريا، الطبعة الأولى ١٤٢٩هـ– ٢٠٠٨م، ٢٤/ ٤٥٠.

(١٠) التمهيد، ابن عبد البر، ٣/ ٥٨٩.

بطرائق الكلام مع العرب كافة على اختلاف لغاتهم ولهجاتهم...إلخ(١١).

ومن التعريفات التي قدمها بعض شراح الحديث النبوي للبلاغة في هذه المرحلة ما ذكره **هشام الوقشي الأندلسي** (ت ٤٨٩هـ)، في كتابه (التعليق على الموطأ في تفسير لغاته وغوامض إعرابه ومعانيه) حيث قال عن البلاغة: هي "أن يَكُون اللَّفظ فَصِيحًا، والمعنى صحيحًا، ولا يَكونُ مَجَازُه تقْصِيرًا، ولا إطْنَابهُ تَطْويلًا، وأن يكونَ حُسْنُ وَصْلِةِ تَابِعًا لِقَطْعِهِ، ومَعَانِيهِ غير تَابِعَةٍ لسَجْعه، ولا يُفْسِدُه التَّعَسُّفُ، ولا يَنْقُصُ بِهَاءَهُ التَّكَلُّف"(١٢).

وإذا كان من مفاهيم البلاغة –بناء على هذا التصور الأخير– عدم التعسف والتكلف، فقد عاب هؤلاء العلماء (التَّكَلُّف) بوصفه من عيوب الكلام بناءً على هذا الطرح، لأن "المُتكلِّفَ لِلْسَّجْعِ يَتكلَّفُ المعاني مِنْ أَجْلِهِ؛ فَتَأتي مَعَانِيهِ قَلِقَةً، وألْفَاظُهُ مُسْتكرَهَةً"(١٣). ويستدلون على ذلك بقَوْله –صلى الله عليه وسلم– لِجَرِيرِ بنِ عَبْدِ الله، حِينَ اسْتَوْصَفَهُ مَنْزِلَهُ: فَسَجَعَ لَهُ– :"إِذَا قُلْتَ فَأَوْجِزْ، وإِذَا بَلَغْتَ حَاجَتكَ فَلَا تَتكلَّفْ"(١٤).

بالإضافة إلى ذلك نجد بعض شراح الحديث – في هذه المرحلة– يختار تعريفاتٍ وردت عند أهل البلاغة، فيوردها –لغةً واصطلاحًا– نقلاً عن الآخرين، كما فعل ابن الجوزي (ت ٥٩٧هـ)، في تعليقه على قول النبي – صلى الله عليه وسلم–: "فَلَعَلَّ بَعضَهُمْ أبلغُ مِن بَعْض"؛ حيث يقول: "قَالَ الزّجاج: بلغ الرجل يبلغ بلاغةً وَهُوَ بليغ: إِذا كَانَ يبلغ بِعِبَارَة لسانِه كُنْه مَا فِي قلبه. وقال غيره: البلاغةُ: إِيصَالُ الْمَعْنى إِلَى الْقلب فِي أحسنِ صُورَة من اللَّفْظ. وَقيل: الإيجاز مَعَ الإفهام، وَالتَّصَرُّف من غير إضجار"(١٥). وربط ابن الجوزي بين البلاغة والفطنة من خلال هذا الحديث في شرحه لقوله –عليه الصلاة والسلام: "**أَلحن بحجته**"، أَي أفطن لَهَا وأجدل، واللحن بِفَتْح الْحَاء: الفطنة، يُقَال مِنْهُ: رجل لحن: أَي فطن"(١٦).

٣–ما بعد مرحلة البلاغيين المتأخرين

لا ينبغي أن نغفل جانبًا مهمًا –في سياق الحديث عن مفاهيم البلاغة في كتب شروح السنة– وهو أن الشروح التي جاءت قبل مرحلة البلاغيين المتأخرين ارتبط تصورها لمفاهيم البلاغة بما نقله الجاحظ وابن المعتز والرماني وأبو هلال وغيرهم ممن

(١١) ينظر: من بلاغة الحديث الشريف، عبد الفتاح لاشين، عكاظ للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى ١٤٠٢هـ– ١٩٨٢م، الصفحات من: ٧–٢٢.

(١٢) التعليق على الموطأ في تفسير لغاته وغوامض إعرابه ومعانيه، هشام الوقشي الأندلسي، تحقيق عبد الرحمن العثيمين، ط: العبيكان– الرياض– الطبعة الأولى ١٤٢١هـ– ٢٠٠١م، ٢/ ٢٦٨.

(١٣) السابق، ٢/ ٢٦٩.

(١٤) السابق نفسه. وهذا الحديث لم أقف على تخريجه في كتب السنة، وإنما ورد عند المبرد (ت٢٨٥هـ) في كتاب الكامل، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط/ دار الفكر العربي، القاهرة، الطبعة الثالثة، ١٤١٧هـ– ١٩٩٧م، ١٠/١. وكذلك في: كتاب الغريبين في القرآن والحديث، لأبي عبيد أحمد بن محمد الهروي، (ت٤٠١هـ)، تحقيق أحمد فريد المزيدي، تقديم فتحي حجازي، مكتبة نزار مصطفى الباز، المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى ١٤١٩هـ– ١٩٩٩م، ٦/ ١٩٧٣.

(١٥) كشف المشكل من حديث الصحيحين، ابن الجوزي، تحقيق علي حسين البواب، ط: دار الوطن الرياض، ٤/ ٤٢٢. وينظر: النكت في إعجاز القرآن، للرماني، تحقيق محمد خلف الله، ومحمد زغلول سلام، ط/دار المعارف– مصر، الطبعة الثالثة ١٩٧٦م، صـ٧٥، ٧٦. و:عروس الأفراح شرح تلخيص المفتاح، لبهاء الدين السبكي، تحقيق عبد الحميد هنداوي، المكتبة العصرية للطباعة والنشر، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٢٣هـ– ٢٠٠٣م، ١/ ٩٠.

(١٦) السابق نفسه.

يسميهم علماءُ الحديث "المتقدمين"، أما ما جاء تاليًا لذلك –كابن حجر العسقلاني وغيرِه– فقد ذُكرتْ في كلامهم تعريفاتٌ للمتأخرين من علماء البلاغة، كالسكاكي والقزويني ومن لفَّ لفَّهما، ويسميهم شراحُ الحديث "أهلَ المعاني والبيان"، كما سيرد بعد قليل.

ومن ثمَّ فقد اهتم كثير من شراح الحديث النبوي –في هذه المرحلة– باستدعاء بعض المفاهيم العامة للبلاغة، حيث ينقلون من كتب أهل الصناعة، قبل السكاكي وبعده، مفاهيم البلاغة ومعانيها، لكن أكثرهم كان يركز على المفاهيم المتحققة في الخطاب النبوي؛ حيث جاءت التعريفات مرتبطةً بطبيعة الخطاب المحلل ذاته، وهو النص النبوي، وقد دار كلام العلماء حول مفاهيم البلاغة –في كتب شروح الحديث– انطلاقًا من هذا الجانب.

ويعد ابن حجر العسقلاني، وبدر الدين العيني، من أوفى شراح الحديث الذين نقلوا عن أهل الفن مفاهيمهم للبلاغة، ومن ذلك قول ابن حجر: "اختلفَ فِي تعريفِ البلاغةِ، فقِيلَ: أن يُبَلِّغَ بعبارةِ لسانهِ كُنْهَ ما في قلبِه. وقيل: إيصَالُ المعنى إلى الغيرِ بأحسنِ لفظٍ. وقيل الإيجاز مع الإفهام، والتَّصَرّفُ مِن غير إضْمارٍ. وقيل: قليلٌ لا يُبْهَمُ وكثيرٌ لا يُسْأَمُ. وَقيل: إجمالُ اللفظ واتساعُ المعنى. وقيل: تقليلُ اللَّفظ وتكثيرُ المعنى. وقيل: حُسْنُ الإيجَازِ مع إصَابَةِ المعنى. وقيل: سُهُولةُ اللفظ مع البديهةِ. وقيل: لمحةٌ دَالَّةٌ أو كلمةٌ تَكْشِفُ عن البُغْيَةِ. وقيل: الإيجازُ مِنْ غير عَجْزٍ والإطناب من غير خطأٍ. وقيل: النطق في موضعه والسُّكُوتُ فِي موضعه. وقيل: معرفةُ الفَصْلِ والوَصْلِ. وقيل: الكلامُ الدَّالُّ أَوَّلُهُ على آخره وَعَكْسُهُ. وهذا كُلُّهُ عن المتقدِّمين"[١٧]. وهذه التعريفات متناثرة في كتب البلاغة والنقد من القرن الثالث الهجري وما بعده حتى القرن السادس الهجري، وقد سمى ابن حجر هؤلاء بـ(المتقدمين).

بالإضافة إلى هذا نجد ابن حجر العسقلاني ينقل –عمّن جاء بعدهم– تعريفاتٍ للبلاغة بما يدل على تصوره لفلسفة المتأخرين في التقعيد، وبخاصة في الفترة التي استقرت فيها المفاهيم؛ حيث يقول: "وعرَّفَ أهلُ المعاني والبيان البلاغةَ بأنَّها مطابقةُ الكلامِ لمقتضى الحالِ والفصاحةِ، وهِيَ خُلُوُّهُ عن التَّعْقِيدِ، وقالوا المرادُ بالمطابقة ما يَحْتَاجُ إليه المتكلمُ بحسبِ تفاوُتِ المقاماتِ ،كالتَّأْكيد وحذفه، والحَذفِ وعَدَمِهِ، أو الإيجَازِ والإسهابِ ونحوِ ذلك"[١٨].

ونلحظ أن هؤلاء العلماء نقلوا عن أهل الصناعة ما يتعلق بالمسارين اللذين قُدمتْ من خلالهما مفاهيم البلاغة، وهما:

أولاً: المفاهيم التي تُقَدِّم البلاغة على أنها ملكة قادرة على إنشاء الكلام البليغ، وهي أقرب إلى كونها صفات للنظم الجيد، **(مثل:** تَقْلِيلُ اللَّفْظِ وَتَكْثِيرُ الْمَعْنَى. وَقِيلَ: حُسْنُ الْإِيجَازِ مَعَ إِصَابَةِ الْمَعْنَى**)**، وكانت لهذا المسار الغلبة في التعريفات.

ثانيًا: الحدود التي تُقدّم البلاغة على أنها علومٌ لها قواعد منظمة، (مثل: مَعْرِفَةُ الْفَصْلِ وَالْوَصْلِ)، والسبب في غلبة المسار الأول على الثاني أن عَمَلَ شراحِ الحديث إجراءٌ تطبيقي، وليس تأصيليًّا.

---

(١٧) فتح الباري بشرح صحيح البخاري، لابن حجر العسقلاني، ط: المكتبة السلفية، ١٣/ ١٧٧.

(١٨) السابق نفسه.

ومن الملاحظ كذلك أن هذا المسار سوف يربط فهْمَه للبلاغة بكلامِ أهلِ الصِّناعة متقدمهم ومتأخرهم، وسيرى أن البلاغةَ في هذا الحديثِ إنَّما هي في: الإصابةِ، والجودةِ، مع التركيز على أهم المباحث البلاغية كالاختصار، أو مراعاة المقام، وغيرها.

وبناء عليه فإن أكثر هذه التعريفات –في هذه المرحلة– جاء من كلام البلاغيين. لكنَّ بعضَها –مما لم يأت من كلام البلاغيين– يستحق أن نقف معه وقفة تحليلية لما يحمله في طياته من تصورات جديدة تضاف إلى حقل البلاغة العربية، بوصفها آليات مهمة في تحليل الخطاب، وليس بلاغة تعليمية تقف عند حد الشاهد والمثال.

فإذا تأملنا القضايا المركزية التي اهتم بها شراح الحديث في تعريف البلاغة، وكانت نابعةً من طبيعة الخطاب النبوي، فسنجد أن هناك مسارات ربطت فهمها للبلاغة بمنطلقات معرفية نابعة من تحليل الحديث الشريف، ومعنى ذلك أن (مفهوم البلاغة) هنا سيرتبط بمعطيات النص النبوي ومضامينه، وستكون وظيفةُ البلاغة نابعةً من تحليل الحديث، بما يشكل في وعينا ضرورة البحث عن مسارات معرفية علمية للبلاغة العربية في ضوء معطياتها التحليلية، وكأننا بذلك نبحث عن البلاغة لا في ضوء القالب التعليمي، وإنما في ضوء البحث عن ملامح (بلاغة الخطاب)، وهي في مجملها مشتركة بينهم وبين غيرهم من علماء التفسير، والأدب، والبلاغة، وكذلك علماء تحليل الحديث النبوي.

ومن الممكن أن يتجلى ذلك في نقاط كثيرة، سوف أكتفى ببعضها في هذا البحث، وإلا فإن تتبعها واستقصاءها يحتاج إلى مجلدة. من هذا النقاط ما يأتي:

١–تفسير البلاغة بأنها فواتح أو مفاتيح الكلم.

هناك فرق دقيق بين (الإيجاز وفواتح الكلم)، فهما وإن كانا يشتركان معًا في الاختصار، فإن فواتح الكلم شيء أدق من الإيجاز، لأنه قد يقع الإيجاز ولا يكون فيه شيء من فواتح الكلم، كحذف عنصر من عناصر الكلام يحصل به الإيجاز من غير أن يترتب عليه ضرورةً حصولُ مفاتيح الكلم، بما يعني أن كلَّ كلامٍ من فواتح الكلم هو إيجاز، وليس كلُّ إيجازٍ يعدُّ من فواتح الكلم.

فشرط (مفاتيح الكلم) أن يكون الكلام موجزًا جامعًا لمعانٍ كثيرة، ولذلك نجد تفسير العلماء لقوله –صلى الله عليه وسلم–:"أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ الْكَلِمِ، وَنُصِرْتُ بِالرُّعْبِ..."[١٩]الحديث. نجد شمس الدين الكرماني (ت٧٨٦هـ) يقول في شرحه للحديث: "قوله (مفاتيح الكلم) أي لفظ قليل يفيد معانيَ كثيرةً، وهذا غاية البلاغة، وشبَّه القليل بمفتاح الخزائن الذي هو آلة للوصول إلى مخزونات متكاثرة"[٢٠]. وهذا يدل على أن مفهومه للبلاغة سوف يرتبط بحصول الإيجاز في الألفاظ مع عمق المعاني وكثرتها، وهذا من أهم سمات البلاغة الحاصلة في فواتح كلمه – صلى الله عليه وآله وسلم–.

---

(١٩) الجامع الصحيح، للإمام البخاري، تحقيق جماعة من العلماء، الطبعة السلطانية، بالمطبعة الكبرى الأميرية، ١٣١١هـ. حديث أبي هريرة رضي الله عنه، رقم ٦٩٩٨.

(٢٠) الكواكب الدراري في شرح صحيح البخاري، شمس الدين الكرماني، دار إحياء التراث العربي – بيروت، ٢٤/ ١٠٨.

وذكر بدر الدين العيني في (نخب الأفكار) تعليقًا على شرح (فواتح الكلم) قال: "الفواتح جمع فاتحة، وأراد بها ما يسّر الله له من البلاغة والفصاحة والوصول إلى غوامض المعاني، وبدائع الحكم، ومحاسن العبارات والألفاظ التي لم تفتح على غيره وتعذرت، وهذا كما في قوله في الحديث الآخر: "أوتيت مفاتيح –وفي رواية: مفاتح– الكلم"[٢١]. وبذلك فإن البلاغة هنا تتمثل فيما عرف بالفرائد التي اختص بها حديث رسول الله –صلى الله عليه وسلم– وعليه فتكون البلاغةُ متعلقةً بقوة التعبير، ودقة العبارة، والتراكيب غير المستهلكة على ألسنة الناس، والمجيء بأبكار المعاني في أحسن تعبير.

أما مصطلح (جوامع الكلم) فقد فسره علماء الحديث بأنه القرآن الكريم، كما ذكر العيني في بيان قوله: "وجوامعه"؛ حيث ذكر أنها: "جمع جامعة، أي كلمة جامعة، وأراد بها القرآن الذي جمع الله بلطفه في الألفاظ اليسيرة معاني كثيرة. وقوله: (وخواتمة): جمْعُ خاتمة، وأراد بها ما يختم به الكلام على حسن الاختتام بعد انتهاء المقاصد، بأبلغ العبارات، وأكمل الإشارات، وأوضح الدلالات"[٢٢].

ولا مانع من وصف حديثه –صلى الله عليه وسلم– بأنه من (جوامع الكلم كذلك)، فهو أقرب طبقةً إلى المعجز، كما أنه لا يتكلم إلا بما علمه ربُّه تشريعًا وبيانًا وثقافة، بدليل قوله :"ألا إني أُوتيتُ القرآنَ ومثلَه معه..."الحديث[٢٣].

٢–ارتباط مفهوم البلاغة برفض التلاعب لإبطال الحقائق

أي إخراج الكلام الحَسَنِ من دائرة البلاغة إذا أريد به تشويه الحقائق والتلاعب بالمخاطبين؛ لأنه سيؤثر سلبًا عليهم في إبطال الحق، وإحقاق الباطل. من ذلك ما رواه ابن عبد البر عن النبيِّ –صلي الله عليه وسلم– قال: "إن مِن البيانِ لَسِحْرًا"، قال ابن عبد البر: "اختلِف في المعنَى المقصودِ إليه في هذا الخبرِ؛ فقِيل: قُصِد به إلى ذَمِّ البلاغةِ؛ إذْ شُبِّهتْ بالسِّحرِ، والسِّحرُ مُحرَّمٌ مَذْمومٌ؛ وذلك لِمَا فيها من تصويرِ الباطلِ في صور الحقِّ، والتفَيهُقِ والتشَدُّقِ، وقد جاء في الثَرْثارِينَ المتَفَيْهِقِينَ ما جاء من الذم. وإلى هذا المعنَى ذهَب طائفةٌ من أصحابِ مالكٍ. واسْتَدَلُّوا على ذلك بإدْخَالِ مالكٍ له في "موطَّئِه" في بابِ ما يُكْرَهُ من الكلام"[٢٤].

إن كراهة هذا النوع من الكلام –التي ذهب إليها مالكٌ هنا– تدل على أن الكلام، وإن كان مؤثرًا

(٢١) نخب الأفكار في تنقيح مباني الأخبار في شرح معاني الآثار، بدر الدين العيني، تحقيق أبو تميم ياسر إبراهيم، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، قطر، الطبعة الأولى ٢٠٠٨م، ٤/ ٢٨٤.

(٢٢) السابق نفسه. وقد ذهب أهل العلم من اللغويين وشراح الحديث إلى أن معنى (جوامع الكلم) هو القرآن الكريم، ينظر: تهذيب اللغة، للأزهري، ٢٥٧/١، باب العين والشين مع السين، تحقيق محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي بيروت ٢٠٠١م. و: كتاب الغريبين في القرآن والحديث، للهروي، تحقيق أحمد فريد المزيدي، مكتبة نزار مصطفى الباز، السعودية، الطبعة الأولى ١٤١٩هـ، ١٩٩٩م، ١/ ٣٦٥.

(٢٣) مصابيح السنة، للبغوي، ط/ دار المعرفة للطباعة والنشر– بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ، ١٩٨٧م، ١٥٨/١.

(٢٤) التمهيد، ابن عبد البر، ٣/ ٥٨٢. وينظر: الاستذكار، لابن عبد البر، تحقيق سالم محمد عطا، محمد علي معوض، دار الكتب العلمية –بيروت، الطبعة الأولى ١٤٢١هـ، ٢٠٠٠م، ٨/ ٥٥٨. وذكر العلماء رأيًا آخر وهو قوله: "أبَى جمهورُ أهلِ الأدبِ والعلم بلسانِ العربِ إلَّا أن يجعَلُوا قولَه –صلى الله عليه وسلم–: "إن من البيانِ لَسِحْرًا" مَدْحًا وثناءً وتَفْضِيلًا للبيانِ وإطْرَاءً، وهو الذي تَدُلُّ عليه سِياقةُ الخبرِ ولفْظُه". السابق نفسه.

ومقنعًا، فإنه مكروه بما يتضمنه من مقاصد سيئة، وكأن هذا المسار يربط البلاغة بمقاصد الكلام، وثنائية الحق والباطل.

وقال بعض العلماء: إنّ رأيَ الفريق الذي جعل وصف البيان بالسحر محمولاً على الذم، احتجّوا له "بتشبيه النّبيّ –عليه الصلاة والسّلام– لذلك البيان بالسِّحر. والسّحرُ محرَّمٌ مذمومٌ قليلُه وكثيرُهُ. ذلك – والله أعلمُ– لما في البلاغة من التَّفَيْهُقِ من تصوير الباطل في صورة الحقّ، وقد قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم– في المتَفَيْهِقِينَ إنَّهُمْ أبغضُ الخَلْقِ إلى اللهِ"(٢٥).

ومما يَستشهد به أصحابُ هذا الاتجاه في تصورهم للبلاغة ووظيفتها: تعليق بعضهم على حديث العرباض بن سارية–رضي الله عنه:"وَعَظَنَا رسولُ الله –صلى الله عليه وسلم – موعظةً بليغةً، ذرفت منها العيون..." (٢٦) الحديث، حيث وصفوا البليغ بالمبالغة في التخويف والإنذار، فقالوا:" البلوغ والبلاغ؛ الانتهاء إلى أقصى المقصد والمنتهى، ومنه البلاغة، والأصل فيه أن يَجمع الكلامُ ثلاثةَ أوصاف: صوابًا في موضوع اللغة، وطبقًا للمعنى المراد منه، وصدقًا في نفسه"(٢٧). فاشتراط هذه الصفات في الكلام البليغ يدل على أن وعيهم المعرفي للبلاغة مرتبطٌ بثنائية الحق والباطل؛ ولذلك كان من ضمن الشروط أن يكون (صدقًا في نفسه)، وهذا نجده يتردد كثيرًا عند شراح الحديث.

ومن أقوى الأدلة على أن هذا التصور المفهومي للبلاغة ووظيفتها كان ماثلاً في قناعةِ كثيرٍ من شراح الحديث: تعريفهم للبلاغة بأنها صَرْفُ الكلام، وذلك في شرح حديث أبي هُرَيْرَةَ – رضي الله عنه – قَال: قَال رَسُول الله –صلى الله عليه وسلم– :"مَن تَعَلَّم صَرْفَ الكَلامِ ليَسبيَ به قُلوبَ الرِّجَالِ –أَوِ: النَّاس– لَمْ يقبلِ اللهُ مَنْهُ يومَ القِيامةِ صَرْفًا ولا عَدْلاً"(٢٨). حيث قال بعضهم:" قوله: "مَنْ تَعَلَّمَ صَرْفَ الكلام"؛ أي: من تعلَّم الفصاحةَ وأنواع البلاغة من الشعرِ وغيرِه من العلومِ، لا لله، بل "ليَسْبيَ به"؛ أي: ليجعلَ قلوبَ الناسِ إليه مائلةً ومُريدةً له، "لم يقبلِ الله منه يوم القيامة صَرْفًا ولا عَدْلاً"(٢٩). ثم جاء ابن حجر وذكر أن الْبَلَاغَة "لَا تُذَمُّ لِذَاتِهَا، وَإِنَّمَا تُذَمُّ بِحَسَبِ التَّعَلُّقِ الَّذِي يُمْدَحُ بِسَبَبِهِ"(٣٠).

---

(٢٥) المسالك في شرح موطأ مالك، للقاضي أبو بكر ابن العربي، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى ١٤٢٨هـ– ٢٠٠٧م، ٧/ ٥٧٥، وقد ذكر تتمة لهذا الكلام فقال: "قال آخرون –وهم الأكثر عددًا–: إنّه كلام أريد به المدح، قالوا: والبيانُ ممدوح، بدليل قوله تعالى:{خَلَقَ الْإِنْسَانَ. عَلَّمَهُ الْبَيَانَ}، وبدليل قوله: "فَعَجِبَ النَّاسُ لِبَيَانِهَا" ولأنّ النّبيَّ – صلى الله عليه وسلم – أعجبه مع أنّه أميرهم بالفصاحة، فشبَّهَهُ بالسِّحر لِغَلَبَةِ السِّحر على القلوب واستمالته إليها، وهذا هو الحقُّ". المسالك في شرح موطأ مالك"، ٧/ ٥٧٦.

(٢٦) سنن ابن ماجة، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، فاتحة الكتاب في الإيمان وفضائل الصحابة والعلم، باب: اتباع سنة الخلفاء الراشدين المهديين، مطبعة دار إحياء الكتب العربية، فيصل عيسى البابي الحلبي، حديث رقم ٤٣، ١/١٦.

(٢٧) المسالك في شرح موطأ مالك، ٧/ ٥٧٥ ، ٥٧٦.

(٢٨) سنن أبي داود، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، طبعة المكتبة العصرية– صيدا بيروت، كتاب الأدب، باب ما جاء في المتشدق من الكلام، حديث رقم ٥٠٠٦، ٤/ ٣٠٢.

(٢٩) المفاتيح في شرح المصابيح، مظهر الدين الزيداني، (ت٧٢٧هـ) دار النوادر وزارة الأوقاف –الكويت، الطبعة الأولى ١٤٣٣هـ– ٢٠١٢م، ٥/ ١٦٨. و(الصَّرْفُ): الحيلة، و(العَدلُ): الفِدَاء. وقيل: (الصَّرْفُ): الفريضة، و(العدلُ): النافلة، وقيل: (الصَّرْفُ): التوبة. السابق نفسه.

(٣٠) فتح الباري لابن حجر، ١٣/ ١٧٧.

وبناء على هذا يكون شراح الحديث قد قدموا تصورًا مفهوميًّا مهمًّا للبلاغة وفق غايات الكلام ومقاصده، وهو من الاتجاهات المهمة في وضع مفاهيم معينة تربط الخطابات بمضامينها. لكن تجدر الإشارة إلى أنه –بالإضافة إلى هذا– كان هناك فريق آخر يرى أن البلاغة لا تُذم لذاتها، بل يُذم المقصد منها إذا كان باطلاً.

٣–ربط البلاغة النبوية بالعلامات غير اللغوية

المقصود بذلك أن البلاغة هنا ليست بلاغة شعرية غارقة في المجازات والاستعارات، وإنما هي بلاغةُ خطابٍ، مقصودٌ منها الإبلاغُ، والحجاج والتأثير، والوضوح والبيان، والاستدلال. وهذا الباب مجال واسع لأن تُجدِّدَ به البلاغةُ العربية نفسَها، لكن للأسف كان الوقوف عند توجه السكاكي والمتأخرين من البلاغيين مما أضر بالبلاغة العربية، حتى ظن بعضُ الباحثين أنها قد استنفدت قواها وطاقاتها التجديدية.

فقد ذكروا بعض أنواع البلاغة غير اللغوية، وذلك بوصفها بلاغة تواصلية تدل على معانٍ ومضامين، وإن لم يكن بذكر ملفوظ، فمن ذلك قول ابن الملقن الشافعي: "جعل ابن المقفع من السكوت بلاغةً رغبةً في الإيجاز، ولبعض الكلبيين: واعلم بأن من السكوت إبانة، ومن التكلم ما يكون خبالًا"(٣١).

وهذا يقتضي أن نركز على طبيعة الدرس البلاغي عند شراح الحديث النبوي؛ لنعرف كيف درسوا العلامات غير اللغوية في الخطاب، وبنوا عليها بلاغة خاصة؛ لأن البلاغة لا تقتصر على دراسة الأصوات، والحروف، والكلمات، والتراكيب، والصور البلاغية، وإنما تُعنى –بالإضافة إلى هذا عند شراح الحديث النبوي– بتحليل العلامات غير اللغوية في الخطاب، كالسكوت على سبيل المثال.

فمن ذلك: قول بعضهم بأنه –صلى الله عليه وسلم– كان "إذا خطب وذكر الساعةَ اشتدَّ غضبه، وعلا صوتُه، واحمرَّت عيناه، وانتفخت أوداجه، كأنه منذر جيشٍ يقول: صبَّحكم مسَّاكم، وإنما طُلبت بلاغة الخطبة؛ لأنها أقرب إلى قبول القلوب واستجلابها"(٣٢).

ومن ثم فهو تحليل يعنى بالعناصر غير اللغوية ودورها الدلالي في الخطاب وفق معطيات السياق التداولي، ثم يعلل ذلك بقوله: "إذ **البلاغة هنا:** المبالغة في التوصل إلى إفهام المعاني المقصودة، وإدخالها قلوب السامعين بأحسن صورة من الألفاظ الدالة عليها، وأفصحها، وأحلاها للأسماع، وأوقعها في القلوب، وكان –صلى الله عليه وسلم– لا يطيل خُطبته، بل يُبْلِغ ويوجز"(٣٣)، فينتقل مفهوم البلاغة – بناءً على هذا– من التصور التركيبي المتعلق بالنظم، إلى التصور التداولي المرتبط بسياق الاستعمال.

٤–ربط البلاغة بالوضوح والفهم والتأثير

كان من المتوقع أن يميل شراح الحديث إلى تعريف البلاغة بالبيان الواضح، وألا يأتي في حديثهم شيء عن تفضيل الغموض الأدبي وبيان أثره في بناء النص؛ وذلك لأن بلاغة الخطاب النبوي تفرض على الوعي الذهني التنظيري الميل إلى السلاسة والإيجاز؛ لأنه من خصائص كلام النبوة إجمالاً، والميل كذلك

(٣١) التوضيح لشرح الجامع الصحيح، لابن الملقن، ١٥/ ٦١٩.

(٣٢) الفتح المبين بشرح الأربعين، ابن حجر الهيتمي (ت٩٧٤هـ)، ط: دار المنهاج جدة السعودية، ١٤٢٨هـ– ٢٠٠٨م، صـ ٤٧٠، ٤٧١.

(٣٣) السابق نفسه.

إلى الوضوح والبيان؛ لأنه أصل من أصول بلاغة الخطاب النبوي، ولذلك كثر –في تعريفاتهم للبلاغة– التركيز على هذا المعنى.

وقد حمل بعض شراح الحديث قوله –صلى الله عليه وسلم– "وإِنَّهُ يَأْتِيني الخَصْمُ فلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أبلغُ مِن بَعْض"، حملوا دلالة البلاغة هنا على معنى (الفصاحة ببيان الحجة)، دون الالتفات إلى ملمح معين من محسنات الكلام، وإنما المعول عليه حصول صفة عامة في الكلام وهي التأثير في المخاطبين، فقالوا: "أبلغ من بعض أَي: أفْصح بِبَيَان حجَّته"[٣٤].

وفي ضوء هذا ذكر بعضُهم تعريفًا للبلاغة في شروح الحديث فقال:"البلاغة: وجازة اللفظ وكثرة المعنى مع البيان"[٣٥]. وقال بعضهم: "البلاغة هي: التوصُّلُ إلى إفهام المعاني المقصودة، وإيصالُهَا إلى قلوب السامعين بأحسن صورة من الألفاظ الدالة عليها، وأفصَحِها، وأحلاها للأسماع، وأوقعِهَا في القلوب"[٣٦]. وقال بعضهم: "البيان: اجتماع الفصاحة، والبلاغة، وذكاء القلب مع اللسن"[٣٧].

وهذه الإشارات تشبعت بها كتب البلاغة والنقد، مما يدل على أن الاتصال المعرفي والإبستمولوجي بين الحقلين ممتد، ولذلك نقل بعض شراح الحديث عن النقاد والبلاغيين المفاهيم التي ذكرت للبلاغة، كقول بعضهم:" ذكر ابن رشيق في "عمدته" أنها قليل يفهم وكثير لا يسأم. وقيل: إجاعة اللفظ وإشباع المعنى، أو معان كثيرة في ألفاظ قليلة، أو إصابة المعنى وحسن الإيجاز، أو سهولة اللفظ مع حسن البديهة، أو لمحة دالة، أو كلمة تكشف عن البغية، أو الإيجاز من غير عجز والإطناب من غير خطأ"[٣٨].

فقولهم (إفهام المعاني)، و(أحسن صورة)، و(أحلاها للأسماع وأوقعها في القلوب)، و(إيصال المعنى)، و(قليل يفهم)، و(إشباع المعنى)، و(إصابة المعنى)، و(سهولة اللفظ)، و(تكشف عن البغية)...إلخ، كلها أقوال تدل على أن البلاغة –وفق تصورهم لوظيفتها– مرتبطة بالوضوح والفهم، وهي وإن كانت أقوالاً مبثوثة في تضاعيف كتب البلاغة فإن اختيارها يدل على مدى قناعتهم بما للبلاغة من دور في التأثير.

المبحث الثاني: توجهات التحليل البلاغي للحديث النبوي

تعددت آليات تحليل الخطاب عند شراح الحديث النبوي، وهي ترتبط بطريقة الشارح، كلٌّ على حده، من حيث شدة قربه من تحليل لغة النص: نحوًا، وصرفًا، وبلاغةً، فتكون مداخلُ التحليل اللغوي والبلاغي وسيلةً للكشف عن المعاني والمضامين.

وهنا سنلحظ أن هناك طريقتين بارزتين –لإجراءات تحليل الخطاب النبوي– في ضوء ما قدمه العلماء للبلاغة من تصورات:

(٣٤) عمدة القاري شرح صحيح البخاري، بدر الدين العيني، دار إحياء التراث العربي– دار الفكر– بيروت، ١٣/ ٥.

(٣٥) شرح المشكاة للطيبي الكاشف عن حقائق السنن، للطيبي، تحقيق عبد الحميد هنداوي، ط/ مكتبة نزار مصطفى الباز، مكة، الطبعة الأولى ١٤١٧هـ– ١٩٩٧م، ٢/ ٦٣٣.

(٣٦) جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثًا من جوامع الكلم، لابن رجب الحنبلي، تحقيق: محمد الأحمدي أبو النور، دار السلام للطباعة والنشر، القاهرة الطبعة الثانية ١٤٢٤هـ– ٢٠٠٤م، ٢/ ٧٦٠.

(٣٧) الميسر في شرح مصابيح السنة، شهاب الدين التوربشتي (ت٦٦١هـ)، تحقيق عبد الحميد هنداوي، ٣/ ١٠٤٥.

(٣٨) التوضيح لشرح الجامع الصحيح، ١٥/ ٦١٩، و: عمدة القاري شرح صحيح البخاري، ١٣/ ٥.

الطريقة الأولى: التركيز على تحليل الألفاظ، والتراكيب، وطريقة النظم وبناء الأسلوب، وذلك انطلاقًا من التصور الموسع لمفهوم البيان، الذي ذكره بعضهم بقوله: هو "جمع الفصاحة في اللفظ، والبلاغة في المعنى"(٣٩).

الطريقة الثانية: اتباع كل ما من شأنه الكشف عن المعاني في تحليل الخطاب، فيدخل في ذلك العلامات الإشارية غير اللغوية، وذلك انطلاقًا من المفهوم الأكثر اتساعًا –كتصور الجاحظ في توصيفه للبيان– باعتبار أن "البيان اسم جامع لكل شيء كشف لك قناع المعنى"(٤٠)، فيبدأ من المنطوق: الحرف، والكلمة، والأسلوب، والصورة، ثم انتهاء بتحليل العلامات غير اللغوية في النص، بل ربما التطرق إلى تفاعل المتلقين مع الخطاب.

وفي هذا البحث لا يسعني بطبيعة الحال أن أفصِّل بين هذه الآليات في مسارات مختلفة فأستخرج آليات التحليل اللغوي أو النصي، وآليات التحليل السياقي، وطبيعة الاستجابات، فذلك يحتاج إلى بحث آخر، لكن يمكن ذكر بعضها مع مراعاة التنوع في نوع الآلية لبيان بعض المسارات العامة في التحليل.

وإذا كان عمل البلاغي في كتب المتأخرين هو البدء بالتعريف ثم يتبعه الشاهد والمثال، فإن الأمر في تحليل النصوص النبوية مختلف، حيث يبدأ الشارح من النص، ويلجأ إلى البلاغة لتكون آليةً في فهم الخطاب وتشريحه بقصد الوصول إلى المعاني والمقاصد والمضامين؛ ومن ثمَّ فإن التصورات الإدراكية للبلاغة لا تخضع للمعيارية التقنينية بقدر ما تخضع لرحابة العقل في استنباط الأحكام، والترجيح، والاستدلال في الخطاب.

ومن أبرز الطرق التي وظفها الشراح في تحليل الخطاب ما يأتي:

١- تحليل العناصر اللغوية:

تعد هذه الطريقة من الأمور التي تحتاج إلى استقصاء جوانب كثيرة في شروح الحديث، بما ينتج عنه الرصد الدقيق للمسارات، وتقديم دراسات معمقة لطرائق الاستنباط والترجيح والتعليل؛ لأن تحليل النص وفق تصور معين للبلاغة يحتاج إلى رصد طرائق التعبير عن المعنى، وهو ما آمن به كثير من الشراح حينما ارتضوا تعريف البلاغة الذي يقول إنها تتمثل في إيصال المعنى إلى القلب في أحسن صورة من اللفظ.

وبناء على ذلك سنجد أن الحكم بالبلاغة يأتي مصحوبًا بالعلة التي من أجلها حصل الاستحسان، وأحيانًا أخرى يكون الحكم مجردًا عن ذكر الحيثيات، ومكتفيًا بإطلاق الحكم من خلال السياق اعتمادًا على ذوق القارئ وحسن فهمه وتلقيه(٤١).

فمن ذلك تعليق بعضهم على قوله –صلى الله عليه وسلم–:(فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وسُنَّةِ الخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ المَهْدِيِّينَ مِنْ بَعْدِي، عَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ)، فقالوا: "اختلف أهل اللغة في النواجذ، فمن قائل: إنها الأضراس. ومن قائل: إنها المضاحك. ومن قائل: إنها الأنياب. والأكثرون على أن الناجذ آخر

(٣٩) فيض القدير شرح الجامع الصغير، للمناوي (ت١٠٣١هـ)، ط: المكتبة التجارية الكبرى– مصر، الطبعة الأولى، ٢/ ٢٥١.

(٤٠) البيان والتبيين، الجاحظ، ط: دار ومكتبة الهلال، ١٤٢٣هـ، ١/١١.

(٤١) ينظر: طرائق كشف المعنى: شراح البخاري أنموذجًا، عبد الوهاب الجبوري، محمد الدوري، مجلة جامعة كركوك للدراسات الإنسانية، المجلد السابع، العدد ٣، ٢٠١٢م.

الأضراس من الإنسان وهي أربعة نواجذ، ومن الفرس: أنيابه، فلعل بعضهم استعملها في أنياب الإنسان على طريق التوسع"[٤٢].

نستنبط من ذلك كيفية الإجراء التحليلي من حيث: الاهتمام باستصحاب المعاني المعجمية ثم طرح فرضية التوسع في الاستعمال، وهي قضية لغوية تتعلق بعلم الدلالة، ثم متابعة التحليل اللغوي –وفق هذا المنطلق–ليصل إلى مقاصد الخطاب في ضوء فرضية التوسع كما أشار إلى ذلك البلاغيون حينما عدّوا وجوه المجاز توسعًا في الاستعمال.

وهذا ما أشار إليه الشارح بقوله: "معنى هذا الكلام: المبالغة في التمسك بهذه الوصية، بجميع ما يمكن من الأسباب المعينة عليه، كالذي يتمسك بالشيء، ثم يستعين عليه بأسنانه، استظهارًا للمحافظة، وعلى هذا التأويل، فالنواجذ هي الأنياب، ويجوز أن يكون معناه: المحافظة على هذه الوصية، بالصبر على مقاساة الشدائد، كمن أصابه ألم فأراد أن يصبر عليه، ولا يستغيث منه بأحد، ولا يريد أن يظهر ذلك عن نفسه، فجعل يشتد بأسنانه بعضها على بعض، وكل ما حمل عليه النواجذ من الأقاويل، فإنه يستقيم على هذا التأويل"[٤٣].

فنلحظ أن الشارح بدأ ببيان المعنى اللغوي للأسلوب، ثم طفق يستخرج المضمون المراد من خلال ربط الكلام بسياقه، واستظهار بلاغة الصورة البيانية، وإسقاط عناصرها على المراد من المضامين في تجلٍ واضح دون ليٍ لأعناق الكلام أو تعسف في التأويل. وهكذا الشأن في تحليل العناصر اللغوية عند شراح الحديث.

ومثال ذلك أيضًا: قول بعض الشراح:"(عَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ) بالذالِ المعجمة وهِي الأضراسُ، قيل: أراد به الجِدَّ في لزوم السُّنَّة، كفعل مَنْ أمسكَ الشيءَ بين أضراسه وعضَّ عليه مَنْعًا من أن ينتَزع، أو الصّبر على ما يُصِيبُ من التَّعبِ في ذات الله كما يَفْعَل الْمُتَأَلِّمُ بالوجع يُصِيبُه"[٤٤].

أما النظر في دلالات الجمل والأساليب، واستنباط معناها من خلال سياقها، والاستدلال بهذا على حكم أو توجيه نبوي، فهو كثير في شروح الحديث، مثال ذلك ما ورد في (شرح صحيح البخاري) لابن بطال (ت ٤٤٩هـ)؛ حيث يقول: "قوله –صلى الله عليه وسلم–:(حُجِبَت النَّارُ بِالشَّهَواتِ والجَنَّةُ بِالمَكَارِهِ) من جوامع الكلم وبديع البلاغة فى ذم الشهوات والنهى عنها، والحض على طاعة الله، وإن كرهتها النفوس وشق عليها؛ لأنه إذا لم يكن يوم القيامة غير الجنة والنار، ولم يكن بد من المصير إلى إحداهما، فواجب على المؤمنين السعي فيما يدخل إلى الجنة وينقذ من النار، وإن شق ذلك عليهم؛ لأن الصبر على النار أشق، فخرج هذا الخطاب منه – صلى الله عليه وسلم– بلفظ الخبر وهو من باب النهى والأمر"[٤٥].

---

(٤٢) الميسر في شرح مصابيح السنة للتوربشتي، ١/ ٨٩.

(٤٣) السابق نفسه.

(٤٤) حاشية السندي على سنن ابن ماجه، نور الدين السندي، (ت١١٣٨هـ)، مكتب المطبوعات الإسلامية– حلب، الطبعة الثانية ١٤٠٦هـ– ١٩٨٦م، ١/ ٢٠.

(٤٥) شرح صحيح البخاري، أبو الحسن ابن بطال (ت٤٤٩هـ)، مكتبة الرشد– الرياض، الطبعة الثانية ١٤٢٣هـ– ٢٠٠٣م، ١٠/ ١٩٨.

إذن فحمل الحديث على معنى (النهي والأمر) دون معنى (الخبر) وإن كان الحديث بصيغة الخبر الابتدائي فيه جانب من جوانب البلاغة في علم المعاني، وهنا يستدل الشارح على أن الكلام يستنبط منه معنى النهي ومعنى الأمر معًا، فإذا كانت النار قد حفت بالشهوات، فالمقصود: اجتنبوا الشهوات المحرمة التي تودي بكم إلى النار، وإذا كانت الجنة قد حفت بالمكاره، فالزموا هذه العبادات وإن كان فيها مشقة؛ فإنها مؤدية إلى الجنة.

إن ذلك الفهم لم يأخذه الشارح من منهج المسار البلاغي التعليمي؛ إذ لم يكن قد ظهر بعد، كما أنه سبق به الإمام عبد القاهر الجرجاني(ت٤٧١هـ)؛ لأنه متوفَّى منتصف القرن الخامس الهجري (ت٤٤٩هـ)؛ حيث لم يكن كتابا الجرجاني (دلائل الإعجاز) و(أسرار البلاغة) قد ظهرا للنور أو تداولهما الدراسون، ومع ذلك نجد هذا الاستنباط الدقيق بهذه المصطلحات والصيغ والطريقة التحليلية العميقة، تخرج من العقلية التحليلية قبل العقلية التنظيرية؛ بما يدل على أننا بحاجة إلى مراجعات للدرس البلاغي، وصياغة تاريخه، وطريقة تطوره.

كذلك عمد بعض شراح الحديث إلى الموازنة البلاغية بين الأساليب، وهذا تقرير للأصل الكبير الذي بُنيت عليه مفاهيم البلاغة العربية وأدواتها في بحثها للإعجاز القرآني من حيث دراسة الطبيعة اللغوية والتركيبية التي تحقق الخصوصية للخطاب. وقد أشار إلى هذا التصور المفهومي للبلاغة، القائم على تفاوت الخطاب بين المتكلمين بحسب الملكة التعبيرية، صاحب كتاب (بغية الرائد لما تضمنه حديث أم زرع من الفوائد)؛ حيث عالج النص معالجة بلاغية وازَنَ فيها بين بلاغات التعبير الخاصة بالنسوة في الحديث، فذكر أن أساليب هؤلاء النسوةِ من الكلامِ "الفصيحِ الألفاظِ، الصَّحيحِ الأغراضِ، البليغِ العِبارةِ، البديعِ الكنايةِ والإشارةِ، الرَّفِيعِ التَّشبيهِ والاستعارَةِ، وبعضُهُنَّ أبلغُ قولًا، وأعلى يدًا، وأكثرُ طولًا، وأمكنُ قاعِدةً وأصلًا، وكلامُ بعضِهِنَّ أكثرُ رونقًا ودِيبَاجَةً، وأرَقُّ حاشِيةً وأحلى مَجَاجَةً، وبعضُهُنَّ أصدقُ في الفصاحَةِ لهجَةً، وأوضحُ في البيانِ محجَّةً، وأبلغُ في البلاغةِ والإيجازِ حُجَّةً"(٤٦).

ثم يشرع في بيان بعض الجوانب البلاغية بيانًا لا يخرج عن دائرة الوصف العام، وذكر أصناف البلاغة ومباحثها في الكلام، دون أن يلجَ إلى دقائق المسائل على نحو ما كان يفعل الجرجاني في شرحه لحديث: "النَّاسُ كإِبِلٍ مِائَة لاَ تَكَادُ تَجِدُ فِيهَا رَاحِلَة"(٤٧) على سبيل المثال؛ حيث يعمد إلى الصورة البلاغية ويبين قيمتها، ووظيفتها، ودقائق معانيها بعمق وجلاء(٤٨).

لكن الشارح هنا يصف ولا يحلل، ويشرح ولا يعلل، إلا ما ندر، فمن ذلك قوله: "فأنتَ إذا تأمَّلتَ كلامَ أمِّ زرعٍ وجدتَهُ- مع كثرةِ فُصُولِهِ، وقِلَّةِ فُضُولِهِ- مُختارَ الكلماتِ، واضِحَ السِّماتِ، بَيِّنَ القَسمَاتِ، قد قَدَّرَتْ ألفاظه قيس معانِيهِ، وقرَّرت قواعِدَهُ، وشيَّدتْ

(٤٦) بغية الرائد لما تضمنه حديث أم زرع من الفوائد، أبو الفضل عياض بن موسى السبتي (ت٥٤٤هـ)، تحقيق الدسوقي، ط: دار الذخائر، الأولى ١٤٣٩هـ- ٢٠١٨م، صـ٣٣٩.

(٤٧) صحيح مسلم، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، مطبعة عيسى البابي الحلبي، كتاب فضائل الصحابة رضي الله عنهم، باب الناس كإبل مائة، حديث رقم ٦٠، ١/ ١٩٧٣.

(٤٨) ينظر: أسرار البلاغة، عبد القاهر الجرجاني، تحقيق محمود شاكر، مطبعة المدني بجدة والقاهرة، الصفحات: ١١٣، ١١٤، ٢٤٥، ٢٤٧.

مبانِيهِ، وجعلتْ لبعضِهِ في البلاغةِ موضِعًا، وأودعتْهُ مِنَ البدِيعِ بِدِعًا. وإذا لَمَحْتَ كلامَ التَّاسِعةِ صاحِبةِ العِمادِ والنِّجادِ والرَّمادِ، ألفيتَها لِأَفانِينِ البلاغةِ جامِعةً، ولِعلمِ البيانِ رافِعةً، وبِعصا الإيجازِ والقصدِ قارِعةً"(٤٩). فهذا لا يعدو –كما هو بين– الوصف العام وذكر المسائل دون تعميق لجوانب التعليل.

حتى فيما يتعلق ببيان دور التشبيه البلاغي فنجده يستعرضه دون أن يبين دوره في النص بيانًا شافيًا، فيقول عن المرأة الأولى في الحديث: "فأمَّا صدقُ تشبيهِهَا، فعلى ما شرحْناهُ قبلُ. والتَّشبيهُ أحدُ أبوابِ البلاغةِ، وأبدعُ أفانِينِ هذِه الصِّناعةِ، وهو موضوعٌ للجلاءِ والكشفِ، والمبالغةِ في البيانِ والوصفِ، والعبارةِ عنْ الخفِيِّ بالجلِيِّ، والمتوهَّمِ بالمحسُوسِ، والحقيرِ بالخطِيرِ، والشَّيءِ بما هو أعظمُ منه"(٥٠).

أما الاستدلال على المعنى من الأسلوب البلاغي للخطاب فقد ورد بكثرة عند شراح الحديث، ومن ذلك شرح حديث عمرو بن العاص: "أتيت النبي – صلى الله عليه وسلم ، فقلت: ابسط يمينك فلأبايعك، فبسط يمينه، فقبضتُ يدي، فقال: (مالك يا عمرو؟) قلت: أردتُ أن أشترط. فقال: (تشترطُ ماذا؟) قلت: أن يغفر لي. قال: أما علمتَ أن الإسلام يهدم ما كان قلبه، وأن الهجرة تهدم ما كان قبلها، وأن الحج يهدمُ ما كان قبله"(٥١). ثم يذكر اتفاق الشارحين في أن الإسلام يهدم ما قبله مطلقًا، أما الهجرة والحج فإنه ليس كالإسلام، فإما أنهما يهدمان الصغائر، أو يهدمان الكبائر إلا فيما يتعلق بحقوق العباد.

ويعلق الطيبي على ذلك **منطلقًا من التصور المفهومي للبلاغة وأنها أداة من أدوات الاستدلال على المعاني**، فيسوق من الشواهد اللغوية والأسلوبية ما يؤكد صدق استنباطه، فتخرج البلاغة بذلك عن كونها حليً زخرفيةً شكلية، إلى كونها أداةً استدلالية، فيقول: "نحن ما ننكر ما اتفق عليه الشارحون، لكن نتكلم في الحديث بحسب ما تقتضيه البلاغة، وذلك أن فيه وجوهًا من التوكيد يدل على أن حكم الهجرة والحج حكم الإسلام:

أحدها أنه من الأسلوب الحكيم، فإن غرض عمرو من إبائه عن المبايعة ما كان إلا حكم نفسه في إسلامه. وحديث الهجرة والحج زيادة في جوابه، كأنه قيل: لا تهتم بشأن الإسلام وحده، وأنه يهدم ما كان قبله، فإن حكم الهجرة والحج كذلك.

وثانيها: أن العطف في علم المعاني يستدعى المناسبة القوية بين المعطوف والمعطوف عليه، وإلا فيدخل في حكم الجمع بين الأروى والنعام. قال صاحب الكشاف في قوله تعالى:(سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ): عطف (وقتلهم الأنبياء) على (ما قالوا) ليدل على أن قولهم: (إِنَّ اللهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاء) في الفظاعة كقتل الأنبياء، وفي أنه يجري مجرى الذنب السابق كقتل الأنبياء(٥٢).

ويلاحظ على هذا التحليل أنه منطلق من (بلاغة النص)، وهي البلاغة التي لا تقف عند رصد الظاهرة الجمالية لذاتها، وإنما لدورها في بناء الخطاب

(٤٩) بغية الرائد لما تضمنه حديث أم زرع من الفوائد، أبو الفضل عياض بن موسى السبتي (ت٥٤٤هـ)، صـ٣٣٩.

(٥٠) السابق نفسه.

(٥١) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب كون الإسلام يهدم ما قبله، وكذلك الهجرة والحج، ١/ ١١٢.

(٥٢) الكاشف عن حقائق السنن، ٢/ ٤٨٣.

ودلالتها على المعنى المراد، وبذلك فهي "تتعدى إلى المعاني أيضًا؛ لأن كل حديث من الأحاديث الصحيحة يشتمل على فوائد كثيرة ومعانٍ مركزة، ولا أدل على ذلك من أن علماء الفقه والدراية بالحديث استنبطوا أحكامًا كثيرة من الحديث الواحد"(٥٣).

ويتابع الطيبي توظيف (بلاغة النص) في تحليل المضامين واستنباطها والاستدلال عليها في هذا الحديث الشريف، وذلك وفق معطيات الخطاب اللغوية فيقول:

"**ثالثها:** (أَمَا) فإن الهمزة فيها معنى النفي، وما نافية، فإذا اجتمعا دلَّا على التقرير، لا سيما وقد اتبعا بقوله: (علمت)، إيذانا بأن ذلك أمر مقرر لا نزاع فيه، ولا ينبغي أن يرتاب مرتاب فيما يتلوها.

ورابعها: لفظ (يهدم) فإنه قرينة للاستعارة المكنية، شبهت الخصائل الثلاث في قلعها الذنوب من سنخها بما يهدم البناء من أصله، من نحو الزلازل والمعاول، ثم أثبت للإسلام ما يلازم المشبه به من الهدم وينسب إليه، على سبيل الاستعارة التخييلية.

وخامسها: الترقي، فإن قوله: (الحج يهدم ما كان قبله) في أبلغ إرادة المبالغة من الهجرة؛ لأنه دونها، فإذا هدم الحج الذنوب فبالطريق الأولى أن تهدمها الهجرة؛ لأنها مفارقة الأوطان والأحباء، وموافقة لنبي الله –صلى الله عليه وسلم–وكذا حكم الهجرة مع الإسلام... .

وسادسها: تكرير (يهدم) في كل من الخصال؛ ليدل على استقلال كل منها بالهدم، ويؤيد هذا بما روينا عن رسول الله –صلى الله عليه وسلم– قال: (مَا رُؤِى الشيطانُ يومًا هو فيه أَصْغَر ولا أَدْحَر ولا أَحْقَر ولا أَغْيَظ مِنْه فِي يَوْمِ عَرَفة، ومَا ذَاكَ إلا لِمَا يَرَى من تنزُّلِ الرَّحْمةِ، وتجَاوُزِ اللهِ عن الذُّنوبِ العِظَام)"(٥٤).

إن هذه الوجوه الستة التي ركز عليها الطيبي في استدلاله على المعنى لهي من خير الشواهد على إيمان شراح الحديث النبوي بأن البلاغة النبوية ليست بلاغة شكلية، وأن التحليل البلاغي العربي للخطابات لا يهتم فقط باستنباط القيم الجمالية، وإنما في استطاعته أن يقدم تحليلاً عميقًا للخطاب وفق الدوال اللغوية، وأن الممارسات التحليلية للخطابات العربية – وبخاصة الخطاب النبوي– في استطاعتها أن تقدم الكثير من التصورات التى تنأى عن الجزئية، والشكلانية، والمعيارية الجامدة.

ومن طرائق الاستدلال البلاغي أيضًا: الجمع بين القرائن العقلية والنقلية بوصفه من أدوات التحليل عند شراح الحديث، والمقصود بذلك أن يشرح النص وأن يعرف معانيه، ثم يطابق السياق والألفاظ ومقاصد النص بما تقتضيه البلاغة، فيعلل للكلمات المختارة تعليلًا يتفق مع السياق الداخلي للنص وسياق التخاطب كذلك، كأن يربط بين سياق الحديث وأفعال المخاطبين.

ومن ذلك: قول بعض الشراح في بيان حديث:"بَشِّرْ خديجةَ بِبَيْتٍ في الجَنَّةِ مِنْ قَصَبْ، لا صَخَبَ فِيهِ ولا نَصَب"، حيث يقول:"لا يخفى أن خديجة –رضي الله عنها– أولُ من بنى بيتًا في الإسلام بوصيتها في النبي –صلى الله عليه وسلم، وتزويجها إياه، وأنها حازت قصَبَ السبق إلى

(٥٣) نحو قراءة نصية في بلاغة القرآن والحديث، عبد الرحمن بودرع، كتاب الأمة، سلسلة دورية تصدر عن إدارة البحوث والدراسات الإسلامية– قطر، العدد ١٥٤، ربيع الأول ١٤٣٤هـ، صـ٩٨.

(٥٤) الكاشف عن حقائق السنن، ٢/ ٤٨٣.

الإسلام، وأجابتْ إلى الإيمان لما دعاها –عليه الصلاة والسلام– من غير أَن تُحْوِجَه إلى صَخَب كما يصخَب البعلُ على حليلته إذا نَغَّصَتْ عليه، ولا أن توقعه في نَصَب، بل لم تألُ جهدًا في جلب كلِّ راحة إليه، وإيناسه من كل وحشة، فاقتضت البلاغةُ أن يُعبر بالعبارة المشاكلةِ لعملها في جميع ألفاظ الحديث، فتأمله"(٥٥).

ومن التعليل لبعض الكلمات المختارة دون غيرها في الخطاب النبوي: تعليق بعضهم على حديث: **"ونبيك الذي أرسلت"**، حيث علل بعض الشراح توجيه النبي –عليه الصلاة والسلام– باستعمال كلمة (نبيك) في هذا الحديث دون (رسولك) التي قالها السائل، بأن السبب في ذلك هو كون النص "ذِكرًا ودعاءً فينبغي فيه الاقتصار على اللفظ الوارد بحروفه، وقد يتعلق الجزاء بالحروف. ولعله أُوحِي إليه هذِه الكلمات، فيتعين أداؤها بحروفها. وقيل: لأن قوله:**(ونبيك الذي أرسلت)**، فيه جزالة من حيث صنعة الكلام، وفيه جمع للنبوة والرسالة، فإذا غيَّرَه فاتَ هذان الأمران، مع ما فيه من تكرير لفظ (رسول وأرسلت)، وأهل البلاغة يعيبونه، والمعروف أن الرسالة من لوازمها النبوة بخلاف العكس"(٥٦).

وهذا التعليل مرتبط بمعطيات البلاغة العربية بمفهومها الواسع المنفتح على الخطاب بكل كفاءاته وكفاياته؛ حيث يفترض وجوب الاتباع لكون الكلمة وحيًا، وهذا هو الافتراض الأول، ثم يبين وجوه الاختيار البلاغية للفظ دون لفظ بحسب ما يتحقق في السياق من دلالات، وما يتطلبه الخطاب من اجتناب التكرار، وبيان التقاطعات الدلالية بين الألفاظ، وهذه افتراضات بلاغية إضافية.

ومن أدوات الاستدلال البلاغي التي اعتمدها بعض محللي الحديث النبوي كذلك: الترجيح، بوصفه آلية من آليات الاستنباط، ومعنى هذا أن المحلل للخطاب النبوي يعرض معنيين للحديث ثم يرجح بينهما، بحيث يكون هذان المعنيان حقيقيين، أو مجازيين، أو يكون أحدهما حقيقيًّا والآخر مجازيًّا، فيلجأ إلى الترجيح بينهما، وهذا قد فعله علماء البلاغة من محللي الخطاب النبوي، كابن الأثير في بعض كتبه. فمن ذلك عنده: أن يأتي الحديث محتملاً معنيين حقيقيين، ثم تأتي القرينة العقلية دالةً على واحدة دون الأخرى، ويضرب على ذلك مثلاً بقوله: "وأما مثال المعنيين إذا كانا حقيقيَّيْن فقول النبي – صلى الله عليه وسلم: "التَمِسُوا الرِّزْقَ في خَبَايَا الأَرْضِ"(٥٧)، والخبايا جمع خبية، وهو كل ما يُخْبَأ كائنًا ما كان، وهذا يدل على معنيين حقيقيِّين:

أحدهما: الكنوز المخبوءة في بطون الأرض.

والآخر: الحرث والغراس.

وجانب الحرث والغراس أرجح؛ لأن مواضعَ الكنوزِ لا تُعلم حتى تُلتمس، والنبي –صلى الله عليه وسلم– لا يأمرُ بذلك؛ لأنه شيءٌ مجهولٌ غيرُ معلومٍ، فبقي المرادُ بخبايا الأرض ما يُحرث ويُغرس"(٥٨).

---

(٥٥) مصابيح الجامع، محمد بن أبي بكر الدماميني (ت٨٢٧هـ)، دار النوادر سوريا، الطبعة الأولى ١٤٣٠هـ– ٢٠٠٩م، ٤/ ٢٢٩.

(٥٦) التوضيح لشرح الجامع الصحيح، ٢٩/ ٢٠٨.

(٥٧) جمع الجوامع المعروف بالجامع الكبير، للسيوطي، تحقيق مختار الهائج، عبد الحميد ندا، حسن عبد الظاهر، ط/ الأزهر الشريف بتاريخ ١٤٢٦، ٢٠١٥م، ٣١/ ٤١٦٥.

(٥٨) المثل السائر، لابن الأثير (ت٦٣٧هـ)، تحقيق أحمد الحوفي، بدوي طبانة، دار نهضة مصر للطباعة والنشر، ١/٧٣.

وكذلك ورد قوله –صلى الله عليه وسلم–:"(إِذَا ابْتَلَّت النِّعالُ فَالصَّلاةُ في الرِّحَال)، وهذا الحديث مرخِّصٌ في ترك صلاة الجماعة بسبب المطر، وله تأويلان:

أحدهما: أنه أراد نعال الأرض، وهو ما غلظ منها.

والآخر: أنه أراد الأحذية، والوجه هو الثاني؛ لظهوره في الدلالة على المعنى، وأكثر العلماء عليه، ولو كان المراد به ما غلظ من الأرض لخرج عن هذا الحكم كل بلد تكون أرضه سهلة لا غلظ فيها"[٥٩]. والملاحظ أن ابن الأثير يعمق من الترجيح البلاغي بوصفه أصلاً استدلاليًا من أصول البلاغة العربية.

والخلاصة أن تحليل شراح الحديث للخطاب النبوي –في ضوء ما سبق– يتفق مع تصورهم عن البلاغة أنها فصاحة في اللفظ وبلاغة في المعنى؛ ومن ثم فهم لا يهتمون بمباحث البلاغة بوصفها حليً زخرفيةً، ولكن بوصفها من أدوات بناء المعنى عند المتكلم، وكذلك من أدوات استنباط المضامين وتشريح النصوص عند المؤوِّل والمحلل.

ثانيًا: تحليل العلامات غير اللغوية وربطها بلاغيًّا بمعطيات الخطاب:

لم يقف تحليل الخطاب النبوي عند العناصر البنائية اللغوية وتشريحها معجمًا وصرفًا ونحوًا وبلاغةً، بل إنه وسع من دائرة التحليل البلاغي بناء على تعدد مفاهيم البلاغة، فقصد إلى تحليل العناصر المقامية والسياقية؛ لأن الحديث النبوي بنية تداولية حاصلة بين متكلم ومخاطبين في سياق معين؛ ومن ثم فإن تحليله يضطر الشارح إلى استجلاء دلالات الموقف والمقام، واستظهار دلالات التواصل غير اللغوية: كحركة الأصابع، ونوع التبسم، وطريقة الجلوس والاتكاء، وطريقة التشكيل والرسم على الأرض لبيان معنى ما، وتصوير الغضب والرضا، واستنارة الوجه، والتنحي عن المخاطب، والإقبال عليه، وطريقة اللوم، إلى آخر هذه العلامات المهمة في رسم الدلالات والمقاصد والمضامين[٦٠].

ومن التأصيل النظري –الدال على ذلك– في كتب شروح الحديث ما ورد في (شرح صحيح البخاري):"قال المهلب: قد تكون الإشارة في كثير من أبواب الفقه أقوى من الكلام، مثل قوله –عليه السلام–:(بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةُ كَهَاتَيْنِ)، ومتى كان يبلغ البيان إلى ما بلغت إليه الإشارة والإعراب بما بينهما بمقدار زيادة الوسطى على السبابة، وفى إجماع العقول على أن العيان أقوى من الخبر دليل أن الإشارة قد تكون في بعض المواضع أقوى من الكلام"[٦١].

ومن أمثلة ذلك على المستوى التطبيقي: تحليل العلامات غير اللغوية التي اهتم بها شراح الحديث، كما ورد في حديث أَبي بَكْرَةَ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ– قَالَ:" كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– فَقَالَ: أَلَا أُنَبِّئُكُمْ بِأَكْبَرِ الْكَبَائِرِ؟ ثَلَاثًا: الْإِشْرَاكُ بِاللَّهِ، وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ، وَشَهَادَةُ الزُّورِ أَوْ قَوْلُ الزُّورِ، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– مُتَّكِئًا فَجَلَسَ، فَمَا زَالَ يُكَرِّرُهَا حَتَّى قُلْنَا لَيْتَهُ سَكَتَ". قال الإمام النووي معلقًا

(٥٩) السابق نفسه.

(٦٠) ينظر: بلاغة الخطاب وطرق الإقناع، لغة الأحاديث النبوية غير اللفظية أنموذجًا، بن فريحة الجيلاني، مجلة فصل الخطاب، مخبر الخطاب الحجاجي، المركز الجامعي تيسمسيلت– جامعة ابن خلدون– الجزائر، العدد السادس، أبريل ٢٠١٤م.

(٦١) شرح صحيح البخاري، ابن بطال، ٧/ ٤٦٠.

على هذه العلامة غير اللغوية: "جُلُوسُهُ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- لِاهْتِمَامِهِ بِهَذَا الْأَمْرِ، وَهُوَ يُفِيدُ تَأْكِيدَ تَحْرِيمِهِ، وَعِظَمَ قُبْحِهِ"(٦٢). وجاء في (شرح القسطلاني): أن النبي صلى الله عليه وسلم فعل ذلك "اهتمامًا وتعظيمًا لقبح ما سيقوله"(٦٣).

ومنه أيضًا: تحليلهم لحديث: "كَانَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسلم- إذا خَطَبَ احْمَرَّتْ عَيْنَاهُ، وَعَلَا صَوْتُهُ، وَاشْتَدَّ غَضَبُهُ حتى كأنه منذر جيش، يقول صبحكم مساكم، وَيَقُولُ بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةُ كَهَاتَيْنِ وَيَقْرُنُ بَيْنَ إِصْبَعَيْهِ السَّبَّابَةِ وَالْوُسْطَى...الحديث". قال النووي: ""كَهَاتَيْنِ: قَالَ الْقَاضِي: يَحْتَمِلُ أَنَّهُ تَمْثِيلٌ لِمُقَارَبَتِهَا وَأَنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهُمَا إِصْبَعٌ أُخْرَى، كما أنّه لا نبيَّ بينه وبين السَّاعَةِ، ويَحتمل أنه لتقريبِ ما بينهما من المدة، وأن التفاوُتَ بينهما كنسبة التفاوت بين الإصبعين تقريبًا لا تَحْدِيدًا"(٦٤).

وهذا التحليل الدلالي من النووي لحركة الأصابع -مع تعدد وجوهه- يدل على قوة الصلات بين اللغة الإشارية وتحليل الخطاب عند شراح الحديث، فقد حمله على أحد وجهين: إما عدم وجود واسطة بينه وبين الساعة، وهذا فيه دليل إضافي على ختم النبوة به -صلى الله عليه وسلم. والوجه الآخر: الدلالة على قصر المدة بين مبعثه ومجيء الساعة، وذلك مقارنة بالأزمان السحيقة الممتدة في الماضي.

وفي موضع آخر يقول النووي: "قَوْلُهُ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- (بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةُ هَكَذَا) وَفِي رِوَايَةٍ كَهَاتَيْنِ وَضَمَّ السَّبَّابَةَ وَالْوُسْطَى...الْمُرَادُ بَيْنَهُمَا شَيْءٌ يَسِيرٌ كَمَا بَيْنَ الْأُصْبُعَيْنِ فِي الطُّولِ. وَقِيلَ هُوَ إِشَارَةٌ إِلَى قُرْبِ الْمُجَاوَزَةِ"(٦٥).

بل أكثر من ذلك، حيث يجعل بعض الشراح هذه العلامات غير اللغوية محلاً للاستدلال على حكم شرعي، فتكون في البيان والدلالة كالعلامة اللغوية تمامًا. مثال ذلك: ما ذكره النووي معلقًا على صدر الحديث:(علا صوته واشتد غضبه) حيث يقول: "يُسْتَدَلُّ به على أنه يُسْتَحَبُّ للخَطِيبِ أَنْ يُفَخِّمَ أَمْرَ الْخُطْبَةِ، وَيَرْفَعَ صَوْتَهُ، وَيُجْزِلَ كَلَامَهُ، وَيَكُونَ مُطَابِقًا لِلْفَصْلِ الَّذِي يَتَكَلَّمُ فِيهِ مِنْ تَرْغِيبٍ أَوْ تَرْهِيبٍ، وَلَعَلَّ اشْتِدَادَ غَضَبِهِ كَانَ عِنْدَ إِنْذَارِهِ أَمْرًا عَظِيمًا، وَتَحْدِيدِهِ خَطْبًا جَسِيمًا"(٦٦). فهذا يدل على مستوى استدلالي آخر لدى شراح الحديث، وهو الاستدلال بالعلامة غير اللغوية على حكم شرعي، كالمنع والوجوب والاستحباب...إلخ؛ ومن ثم فقد كان تحليلهم للخطاب النبوي منفتحًا على كل ما يحيط بسياق التخاطب.

ومن تحليل العلامات غير اللغوية أيضًا شرح العلماء لمعاني الإشاحة بالوجه، وذلك كما ورد في حديث عَدِيّ بْنِ حَاتِمٍ أَنَّ النَّبِيَّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- ذَكَرَ النَّارَ فَأَشَاحَ بِوَجْهِهِ فَتَعَوَّذَ مِنْهَا، ثُمَّ ذَكَرَ النَّارَ فَأَشَاحَ بِوَجْهِهِ فَتَعَوَّذَ مِنْهَا، ثُمَّ قَالَ:"اتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ، فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَبِكَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ"(٦٧).

(٦٢) المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، أبو زكريا محيي الدين النووي (ت٦٧٦هـ)، دار إحياء التراث العربي، الطبعة الثانية ١٣٩٢هـ، ٢/ ٨٨.

(٦٣) إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري، أبو العباس القسطلاني، (ت٩٢٣هـ)، ط: المطبعة الكبرى الأميرية- مصر، ٩/ ١٦٠.

(٦٤) المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، النووي ٦/ ١٥٥.

(٦٥) السابق، ١٨/ ٨٩.

(٦٦) السابق، ٦/ ١٥٦.

(٦٧) إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري، ٩/ ٣٢٤.

يقول النووي: "الْمُشِيح: الْحَذِرُ وَالْجَادُّ فِي الأَمْرِ، وقِيلَ الْمُقْبِلُ، وقِيل الهَارِبُ، وقِيل الْمُقْبِلُ إليك المَانِعُ لما وراء ظهره، فأشاح هنا يحتمل هذه المعانى، أَيْ حَذِرَ النَّارَ كَأَنَّهُ يَنْظُرُ إِلَيْهَا، أو جَدَّ في الإيضاحِ بإِيقَانِها، أو أَقْبَلَ إِلَيْكَ خِطَابًا، أو أَعْرَضَ كَالْهَارِبِ"[٦٨]. وهذا الطرح يتسم برحابة التأويل، إذ يعمد إلى ذكر الدلالات المحتملة من الفعل الحركي ويربط بينه وبين السياق، فإن لم يمتنع حمل أحدها على التحادث امتنع التعيين، وظلت الدلالة تتسم بالتعددية والاحتمالية.

والخلاصة أن تحليل العلامات غير اللفظية التي تحيط بسياق الخطاب وإنتاجه يدل على عناية علمائنا بأثر هذه العلامات في تأويل المضامين واستنباط الأحكام، بالإضافة إلى دورها المهم بوصفها أداة تواصلية تداولية، وذلك في ضوء التصور المفهومي الموسع للبيان بأنه (كل شيء كشف لك قناع المعنى)، وهذا كله يجعلنا نعيد النظر في مثل هذه العطاءات المعرفية لتكون أداةَ نظر وبحث وتقصٍّ تسهم في تشكيل مسارات مهمة في نظرية البلاغة العربية وتطبيقاتها، تلك التي يمكن أن تستنبط معالمها من تحليل الخطاب العربي على نحو موسع.

الخاتمة وأهم النتائج

سعى هذا البحث إلى تفنيد الزعم بأن البلاغةَ العربية بلاغةٌ شكلية لا تتجاوز الشاهد والمثال، وأنها بلاغة جزئية لا ترقى إلى تحليل مضمون الخطاب والنفاذ إلى المقاصد والمضامين. وقد حاول تفنيد ذلك من خلال تتبع تعريفات البلاغة عند شراح الحديث النبوي من حيث التصور النظري، ثم من حيث الإجراءات التطبيقية في التحليل، بما يسهم في تشكيل صورة واضحة عن طبيعة البلاغة الواسعة التي تضطلع بتحليل الخطاب النبوي، وفق منطلقات واضحة في التحليل والتعليل والترجيح والاستنباط.

ومن أهم ما توصل إليه البحث ما يأتي:

أولاً: خلت المدونات التي اهتمت بالحديث النبوي شرحًا وتحليلاً في مرحلة (ما قبل ظهور المؤلفات البلاغية) من ذكر مفاهيم للبلاغة، ومن وضع تصوراتٍ عامة لها كذلك، وإن كان لها حضور في وعي القراءة التحليلية، بحيث يمكن تلمسها ضمنًا في مطاوي الكلام.

ثانيًا: انقسمت الشروح (فيما بعد ظهور المدونات البلاغية إلى ما قبل ظهور السكاكي) قسمين تجاه العناية برصد مفاهيم البلاغة عند شراح الحديث النبوي: الأول: شروح لم تعتنِ بذكر مفاهيم للبلاغة، والثاني: شروح تطرقت إلى عرض بعض الحدود والمفاهيم حول معنى البلاغة بصياغة جديدة تستحق النظر والتأمل، وبعضها اكتفى بالنقل من التعريفات التي ذكرتها كتب أهل الصناعة.

ثالثاً: من أهم الأبعاد التي قدمها شراح الحديث النبوي لمفهوم البلاغة أربعة أبعاد:

١-تفسير البلاغة بأنها جوامع الكلم أو مفاتيح الكلم.

٢-ارتباط مفهوم البلاغة برفض التلاعب لإبطال الحقائق.

٣-التوسع في مفهوم البلاغة النبوية لتشمل العلامات غير اللغوية. ٤-ربط البلاغة بالوضوح والفهم والتأثير.

([٦٨]) المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، ٧/ ١٠٢.

وقد أثبت رصد هذه المفاهيم التي عالجها البحث أنه يمكننا أن ندرس البلاغة العربية عبر تصور جديد لا يبدأ من القاعدة والشاهد، وإنما يبدأ من تصور عام لتحليل الخطاب ودور البلاغة فيه، وفق معطيات النظرية البلاغية العربية.

رابعًا: تمثلت أهم توجهات التحليل البلاغي للخطاب النبوي عند الشراح في اتجاهين: أولهما التركيز على تحليل الألفاظ، والتراكيب، وطريقة النظم وبناء الأسلوب، وذلك انطلاقًا من التصور الموسع لمفهوم البيان، الذي ذكره بعضهم بقوله: هو"جمع الفصاحة في اللفظ، والبلاغة في المعنى". والآخر: اتباع كل ما من شأنه الكشف عن المعاني في تحليل الخطاب، فيدخل في ذلك العلامات الإشارية غير اللغوية، وذلك انطلاقًا من المفهوم الأكثر اتساعًا، كاعتبار أن "البيان اسم جامع لكل شيء كشف لك قناع المعنى".

وجاء اهتمام البحث بمفاهيم البلاغة وفق استقراء الشروح وتحليل المقترحات التي يمكنها أن تنأى بالبحث البلاغي العربي عن جفاف الجانب التقعيدي، إلى القدرة على تحليل مضامين الخطاب على نحو أكثر عمقًا. كما أن المفاهيم التي قدمها شراح الحديث تنظيرًا وتطبيقًا عبر ممارساتهم التحليلية للنصوص يمكنها أن تسهم في تقديم أفكار جديدة تسهم في تطور نظرية البلاغة العربية من حقول معرفية مشابهة لها في النظام المعرفي.

خامسًا: جاءت آليات التحليل البلاغي للخطاب النبوي عند شراح الحديث مرهونة بتصورات تنظيرية لمفاهيم البلاغة، وبعض هذه الممارسات التحليلية إنما جاء من مهارة الموسوعية الذهنية للمحلل عبر إعمال العقل في مكونات النص، وما يتعلق بها من طرائق اتصال لفظية وغير لفظية.

وينتهي البحث إلى التوصية الآتية:

ضرورة توجيه الباحثين أنظارهم إلى كتب الحقول المعرفية المتداخلة مع علوم البلاغة العربية، كالمدونة الفقهية، وكتب التفسير، وكتب العقيدة وعلم الكلام، وغيرها للبحث عن تصوراتهم حول مفاهيم البلاغة؛ حيث تسهم التصورات النظرية والإجراءات التطبيقية التي قدموها في توليد مسارات معرفية في نظرية البلاغة العربية، نابعة من طبيعة تحليل الخطاب.

المراجع:

ابن الأثير (ت٦٣٧هـ)، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تحقيق أحمد الحوفي، بدوي طبانة، دار نهضة مصر للطباعة والنشر– القاهرة– (د.ت).

الأزهري، تهذيب اللغة، تحقيق/ محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي– بيروت– ٢٠٠١م.

البخاري، الجامع الصحيح، تحقيق جماعة من العلماء، الطبعة السلطانية، بالمطبعة الكبرى الأميرية، القاهرة– ١٣١١هـ.

ابن بطال، أبو الحسن (ت٤٤٩هـ)، شرح صحيح البخاري، مكتبة الرشد– الرياض، الطبعة الثانية ١٤٢٣هـ– ٢٠٠٣م.

بطاهر، بن عيسى، إشكالية تجديد البلاغة العربية رؤية في المنهج وطرائق التعليم، أعمال مؤتمر اللغة العربية ومواكبة العصر، الجامعة الإسلامية– المدينة المنورة– ٢٠١١م.

البغدادي، الخطيب، الفقيه والمتفقه، تحقيق عادل العزازي، ط: دار ابن الجوزي – الرياض، الطبعة الثانية ١٤٢١هـ.

البغوي (ت٥١٦هـ)، مصابيح السنة، تحقيق/ يوسف عبد الرحمن المرعشلي، محمد سليم إبراهيم سمارة، جمال حمدي الذهبي، ط/ دار المعرفة للطباعة والنشر– بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ، ١٩٨٧م.

بودرع، عبد الرحمن، نحو قراءة نصية في بلاغة القرآن والحديث، كتاب الأمة، سلسلة دورية تصدر عن إدارة البحوث والدراسات الإسلامية، الدوحة– قطر، العدد ١٥٤، ربيع الأول ١٤٣٤هـ.

التوربشتي، شهاب الدين (ت٦٦١هـ)، الميسر في شرح مصابيح السنة، تحقيق عبد الحميد هنداوي. مكتبة نزار مصطفى الباز، الطبعة الثانية ١٤٢٩هـ، ٢٠٠٨م.

الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر (ت٢٥٥هـ)، البيان والتبيين، طبعة دار ومكتبة الهلال– بيروت لبنان، ١٤٢٣هـ.

الجبوري، عبد الوهاب، والذروي، محمد، طرائق كشف المعنى: شراح البخاري أنموذجًا، مجلة جامعة كركوك للدراسات الإنسانية، المجلد السابع، العدد ٣، ٢٠١٢م.

الجرجاني، عبد القاهر، أسرار البلاغة، تحقيق محمود شاكر، مطبعة المدني، جدة والقاهرة، ١٩٩١م.

ابن الجوزي، كشف المشكل من حديث الصحيحين، تحقيق علي حسين البواب، ط: دار الوطن، الرياض.

الجيلاني، بن فريحة، بلاغة الخطاب وطرق الإقناع، لغة الأحاديث النبوية غير اللفظية أنموذجًا، مجلة فصل الخطاب، مخبر الخطاب الحجاجي، المركز الجامعي تيسمسيلت– جامعة ابن خلدون– الجزائر، العدد السادس، أبريل ٢٠١٤م.

الخطابي، أعلام الحديث، شرح صحيح البخاري، تحقيق محمد بن سعد آل سعود، ط: مركز البحوث العلمية وإحياء التراث الإسلامي، جامعة أم القرى، مكة، الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ– ١٩٨٨م.

الدماميني، محمد بن أبي بكر (ت٨٢٧هـ)، مصابيح الجامع، دار النوادر سوريا، الطبعة الأولى ١٤٣٠هـ– ٢٠٠٩م.

الدينوري، ابن قتيبة، غريب الحديث، تحقيق عبد الله الجبوري، مطبعة العاني–بغداد، الطبعة الأولى ١٣٩٧هـ.

الرباط، خالد، وعيد، سيد عزت، الجامع لعلوم الإمام أحمد – شرح الأحاديث والآثار، دار الفلاح للبحث العلمي وتحقيق التراث، الفيوم – مصر، الطبعة الأولى، ١٤٣٠هـ، ٢٠٠٩م.

ابن رجب الحنبلي، جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثًا من جوامع الكلم ، تحقيق: محمد الأحمدي أبو النور، دار السلام للطباعة والنشر، القاهرة الطبعة الثانية ١٤٢٤هـ– ٢٠٠٤م.

الرماني، النكت في إعجاز القرآن، تحقيق محمد خلف الله، ومحمد زغلول سلام، ط/دار المعارف– القاهرة، الطبعة الثالثة ١٩٧٦م.

الزيداني، مظهر الدين (ت٧٢٧هـ)، المفاتيح في شرح المصابيح، دار النوادر وزارة الأوقاف –الكويت، الطبعة الأولى ١٤٣٣هـ– ٢٠١٢م.

السبتي، أبو الفضل عياض بن موسى (ت٥٤٤هـ)، بغية الرائد لما تضمنه حديث أم زرع من الفوائد، تحقيق الدسوقي، ط: دار الذخائر، الأولى ١٤٣٩هـ- ٢٠١٨م.

السبكي، بهاء الدين، عروس الأفراح شرح تلخيص المفتاح، تحقيق عبد الحميد هنداوي، المكتبة العصرية للطباعة والنشر، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٢٣هـ- ٢٠٠٣م.

السجستاني (ت٢٧٥هـ)، أبو داود سليمان، سنن أبي داود، تحقيق/ محمد محيي الدين عبد الحميد، طبعة المكتبة العصرية- صيدا بيروت.

السندي، نور الدين، حاشية السندي على سنن ابن ماجة، (ت١١٣٨هـ)، مكتب المطبوعات الإسلامية- حلب، الطبعة الثانية ١٤٠٦هـ- ١٩٨٦م.

السيد، إبراهيم سعيد، أصول البلاغة العربية، نحو محاولة تأسيسية لتصور جديد، ط/ دار النابغة- طنطا، مصر- الطبعة الأولى ١٤٤٣هـ ٢٠٢٢م.

السيوطي، جمع الجوامع المعروف بالجامع الكبير، تحقيق مختار الهائج، عبد الحميد ندا، حسن عبد الظاهر، ط/ الأزهر الشريف، القاهرة- ١٤٢٦، ٢٠١٥م.

الشافعي، محمد بن إدريس، اختلاف الحديث، مطبوع بآخر كتاب الأم، للشافعي، ط/دار الفكر - بيروت، الطبعة الثانية ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م.

الطيبي، شرح المشكاة للطيبي الكاشف عن حقائق السنن، تحقيق عبد الحميد هنداوي، ط/ مكتبة نزار مصطفى الباز، مكة، الطبعة الأولى ١٤١٧هـ-١٩٩٧م.

ابن عبد البر القرطبي، أبو عمر، التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، ط/ مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، الطبعة الأولى ١٤٣٩هـ، ٢٠١٧م.

ابن عبد البر القرطبي، أبو عمر، الاستذكار، تحقيق سالم محمد عطا، محمد علي معوض، دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الأولى ١٤٢١هـ، ٢٠٠٠م.

عبد اللطيف، عماد، البلاغة العربية الجديدة مسارات ومقاربات، ط/ دار كنوز المعرفة، عمَّان- الأردن، الطبعة الثانية ١٤٤٢هـ، ٢٠٢١م.

ابن العربي، القاضي أبو بكر المسالك في شرح موطأ مالك، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى ١٤٢٨هـ- ٢٠٠٧م.

العسقلاني، ابن حجر، فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي، وصححه محب الدين الخطابي، بتعليق عبد العزيز بن باز، ط:المكتبة السلفية، ودار المعرفة بيروت ١٣٧٩هـ.

العمري، محمد، أسئلة البلاغة في النظرية والتاريخ والقراءة دراسات وحوارات، ط/ أفريقيا الشرق، ٢٠١٣م.

العيني، بدر الدين (ت٨٥٥هـ)، عمدة القاري شرح صحيح البخاري، دار إحياء التراث العربي-دار الفكر-بيروت.

العيني، بدر الدين، نخب الأفكار في تنقيح مباني الأخبار في شرح معاني الآثار، تحقيق أبي تميم ياسر إبراهيم، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، قطر، الطبعة الأولى ٢٠٠٨م.

القسطلاني، أبو العباس (ت٩٢٣هـ)، إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري، ط: المطبعة الكبرى الأميرية- مصر. الطبعة السابعة ١٣٢٣هـ.

الكرماني، شمس الدين، الكواكب الدراري في شرح صحيح البخاري، دار إحياء التراث العربي – بيروت.

لاشين، عبد الفتاح، من بلاغة الحديث الشريف، عكاظ للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى ١٤٠٢هـ- ١٩٨٢م.

ابن ماجة القزويني، أبو عبد الله، سنن ابن ماجة، (٢٧٣هـ)، تحقيق/ محمد فؤاد عبد الباقي، مطبعة دار إحياء الكتب العربية، فيصل عيسى البابي الحلبي.

المبرد، أبو العباس، كتاب الكامل، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط/ دار الفكر العربي، القاهرة، الطبعة الثالثة، ١٤١٧هـ- ١٩٩٧م.

ابن الملقن الشافعي، سراج الدين أبو حفص، التوضيح لشرح الجامع الصحيح، دار النوادر دمشق سوريا، الطبعة الأولى ١٤٢٩هـ-٢٠٠٨م.

المناوي (ت١٠٣١هـ)، فيض القدير شرح الجامع الصغير، طبعة المكتبة التجارية الكبرى-مصر، الطبعة الأولى ١٣٥٦هـ.

النووي، أبو زكريا محيي الدين (ت٦٧٦هـ)، المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، دار إحياء التراث العربي، الطبعة الثانية ١٣٩٢هـ.

النيسابوري، أبو الحسين مسلم بن الحجاج (ت٢٦١هـ) صحيح مسلم، تحقيق/ محمد فؤاد عبد الباقي، مطبعة عيسى البابي الحلبي، ١٣٧٤هـ، ١٩٥٥م.

الهروي، أبو عبيد أحمد بن محمد (ت٤٠١هـ)، كتاب الغريبين في القرآن والحديث، تحقيق أحمد فريد المزيدي، مكتبة نزار مصطفى الباز، المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى ١٤١٩هـ-١٩٩٩م.

الهيتمي، ابن حجر (ت٩٧٤هـ)، الفتح المبين بشرح الأربعين، ط: دار المنهاج جدة السعودية، ١٤٢٨هـ-٢٠٠٨م.

الوقشي الأندلسي، هشام، التعليق على الموطأ في تفسير لغاته وغوامض إعرابه ومعانيه، تحقيق عبد الرحمن العثيمين، طبعة العبيكان-الرياض-الطبعة الأولى ١٤٢١هـ-٢٠٠١م.